

مداخلة بعنوان:

التأويل اللغوي للنص القرآني

- جدلية الاستثمار والاستغلال -

إعداد: الدكتور العيد حذيق¹

- موجهة إلى الندوة الدولية: الإنسان والتأويل
- المنظم من قِبَل: المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بسببيلة
- nadwatlmdina@gmail.com**
- يندرجُ في المحور الثاني: مكاسب التأويل ومزالقه

¹ أستاذ محاضر أ، ومسؤول تخصص اللغة العربية والدراسات القرآنية، بقسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الوادي، الجزائر.

ملخص:

- هذا المداخلة بعنوان: التأويل اللغوي للنص القرآني - جدلية الاستثمار والاستغلال -.

- وهي دراسة في إشكالية توظيف التأويل اللغوي لنص القرآن الكريم، في مدونات التفسير التراثية، وكشف أنماط تعامل المفسرين مع هذه القضية؛ إذ أن المتأمل في هذه المسألة، يتضح له توجّهان بارزان في توظيفها: توجّه ينطلق من المحتملات اللغوية في النص القرآني ليصل إلى بيان معناه؛ فهي نقطة البداية عنده. وتوجّه يعكس الأمر؛ فينطلق من المقرّرات العقدية، ويوظف إمكانات اللغة وسعتها في تأويل النص القرآني لنصرة ذلك المقرّر العقديّ، فهي نقطة النهاية عنده.

- ولمعالجة هذا الإشكال؛ بنيت أركان المداخلة على مقدّمة، ومقصدتين وخاتمة. أمّا المقدّمة؛ فقد تم فيها تحرير الإشكال الذي يطرحه الموضوع، وبيان بعض القضايا التي ينبني عليها البحث؛ من قبيل: أهمية اللغة العربية للمفسر، وضوابط الاعتماد على اللغة في التفسير. وأما المقصد الأول؛ أثر التأويل اللغوي في اختلاف المفسرين؛ فيمثّل الجانب الإيجابي في استثمار التفسير اللغوي، وهو ما يُطلق عليه بعض أهل الشّأن: اختلاف التنوع، أي تكثير المعاني والدلالات للنص الواحد، دون تعارض أو مناقضة. وأما المقصد الثاني؛ استغلال التأويل اللغوي للانحراف بالتفسير؛ فيمثّل الجانب السلبيّ من القضية؛ إذ يُصبح التأويل اللغوي تابعا لا متبوعا، يُلوى عُنقه ليوافق مقصود المؤلّ.

وقد توصلت في الخاتمة إلى نتائج أهمّها:

أن اللغة العربية على أهميتها لا تستقل بإدراك التفسير، بل الاعتماد عليها بمجرد ما يُعتبر من موارد الخطأ في التفسير.

وأن أسلم طريق مُوصل إلى نتائج علمية صحيحة في التفسير؛ هو الانطلاق من النص القرآني ذاته، لا من المُسلّمات القبلية.

الكلمات المفتاحية:

التأويل، اللغة العربية، الاستثمار، الاستغلال، الدلالات

Abstract :

This paper entitled "**The Linguistic Interpretation of the Qur'anic Text-The Dialectic of Investment and Exploitation**" dives into the issue of employing the linguistic interpretation of the text of the Holy Qur'an in the traditional interpretation records ; and tries to reveal the different patterns of interpreters dealing with this issue. Two prominent trends in the use of linguistic interpretation of the Qur'anic text become clear to the contemplator of this issue. An orientation that starts with the linguistic potentials in the Qur'anic text to reach a statement of its meaning. In this case, the linguistic interpretation is the starting point of this trend. And an attitude that reverses the

equation by starting from the doctrinal decisions and employing the potentials of the language and its capacity to support those doctrinal decisions which are this trend's end point.

To address this issue, this paper is designed in the form of an introduction , two chapters , and a conclusion. In the introduction, the studied problem is thoroughly presented and some of the cases on which the research is built are elucidated such as the importance of the Arabic language to the interpreter and the regulations that govern the dependency on Arabic in the process of interpreting . The first chapter –**The Impact of Linguistic Interpretation on the Variation of Interpreters**- provides an insight into the positive side of investing in the linguistic interpretation, which is what people in the field call: the difference of diversity, that is; the multiplication of meanings and connotations of the same text without conflict or contradiction. The second chapter –**The Exploitation of Linguistic Interpretation in Deviating the Interpretation**- introduces the negative side of the issue where the linguistic interpretation becomes subservient to the interpreters who twist it to match their intent. Lastly, the conclusion exhibits the most important results :

1. The Arabic language, despite its importance, is dependent on the comprehension of the interpretation ; rather, relying on language by itself is considered one of the sources of error in interpretation.
2. And the safest way to correct scientific results in interpretation is to start from the Qur'anic text itself, not from the axioms.

Keywords :

Interpretation , the Arabic language, Investment , Exploitation, Semantics

مُقَدِّمَةٌ:

بسم الله الرحمن الرحيم

لا ريب أنَّ المكنة من اللُّغة العربيَّة، في غاية الأهميَّة، لكلِّ مَنْ رام الولُوجَ إلى حِمى العلوم الإسلاميَّة، ذلك أنَّ وعاء التشريع الإسلاميِّ الحكيم، هو اللِّسان العربيُّ المبين، وهو ما يفرضُ بداهةً على المتصديِّ لعلوم الشرع؛ أن يمتلك الآلة الموصلة إليه، ومن أوائل ما يُعدُّ من علوم الآلة؛ علوم اللغة العربيَّة. يقرر ابنُ خلدون رحمه الله (ت:808هـ) في هذا الصدد أنَّ أركانَ علوم اللِّسان العربيِّ «أربعةٌ؛ وهي: اللُّغة والنَّحو والبيان والأدب، ومعرفةُها ضروريَّة على أهل الشَّريعة؛ إذ مأخذ الأحكام الشَّرعيَّة كُلِّها من الكتاب والسَّنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصَّحابة والتَّابعين عربٌ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلا بدَّ من معرفة العلوم المتعلِّقة بهذا اللِّسان لمن أراد علم الشَّريعة»¹.

وإذا كان على رأسِ مصادر التشريع؛ القرآن الكريم، فإنَّ من أوائل العلوم الشرعية المتعلِّقة به والتي تحتاج إلى إحاطة بعلوم اللغة العربيَّة؛ علم تفسيره وبيان معانيه. ولأهميَّة هذه القضية؛ فإنِّي سأفردُها بالتَّنبؤ في الفرع الآتي:

- أَوَّلًا: أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ الْمُفَسِّرِ لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

لعلَّ من أعظم النُّصوص الَّتِي نُصِدِرُ بِهَا بَيَانَ أَهَمِّيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْمُتَصَدِّقِ لِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ ما يُؤَثِّرُ عن إمامنا مالكٍ رحمه الله (ت:169هـ)، وذلك ما روى البيهقيُّ في (شُعَبِ الْإِيمَانِ)، عنه رحمه الله أَنَّهُ قَالَ: «لَا أُوتِيَ بِرَجُلٍ غَيْرِ عَالِمٍ بِلُغَاتِ الْعَرَبِ يُفَسِّرُ ذَلِكَ إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا»². وليس ذلك بمُسْتَنَكِرٍ على الإمام رحمه الله؛ فَإِنَّهُ مُقْتَدٍ فِي ذَلِكَ بِأَثَمَةِ التَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحَرِّمُ عَلَى الْمُفَسِّرِ الْخَوْصَ فِي كَلَامِ اللَّهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ بِلُغَاتِ الْعَرَبِ. قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:104هـ): «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِلُغَاتِ الْعَرَبِ»³.

وما شَدَّدَ أَوْلَانِكَ السَّلَفُ الصَّالِحُونَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ؛ إِلَّا حَفَظًا لِمَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنَ التَّحْرِيفِ، وَنَاقِيًا بِمَبَانِيهِ - قَبْلَ ذَلِكَ - عَنِ التَّزْيِيفِ، وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ؛ مَا ذَكَرَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:388هـ) فِي (بَيَانِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ)، «عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: جَمَعْنَا الْحَسَنُ لِعَرْضِ الْمُصَاحِفِ، أَنَا وَأَبَا الْعَالِيَةِ الرِّيَاحِيِّ وَنَصَرَ بَنَ عَاصِمِ اللَّيْثِيِّ وَعَاصِمًا الْجَحْدَرِيَّ؛ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَبَا الْعَالِيَةِ، قَوْلُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) مَا هَذَا السَّهْوُ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَدْرِي عَنْ كَمْ يَنْصَرِفُ؛ عَنْ شَفْعٍ أَوْ عَنْ وَتَرٍ. فَقَالَ الْحَسَنُ: مَهْ يَا أَبَا الْعَالِيَةِ، لَيْسَ هَذَا، بَلِ الَّذِينَ سَاهَوْا عَنْ مِيقَاتِهِمْ حَتَّى تَفُوتَهُمْ. قَالَ الْحَسَنُ: أَلَا تَرَى قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: (عَنْ صَلَاتِهِمْ) [...] قُلْتُ: وَإِنَّمَا أُتِيَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي هَذَا مِنْ حَيْثُ لَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ حَرْفِ (عَنْ) وَ(فِي)، فَتَنَبَّهَ لَهُ الْحَسَنُ فَقَالَ:

1 ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي

الشأن الأكبر)، تحقيق خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1408هـ-1988م، ص753.

² البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق عبد العلي حامد، ط1، دار الرشد، السعودية، 1423هـ-2003م، ج3، ص543. فصل في ترك التفسير بالظن، أثر رقم 2090.

³ الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب

العربية، 1376هـ-1957م، ج1، ص292.

ألا ترى قوله: (عن صلاتهم) يؤيد أن السهو الذي هو الغلط في العدد؛ إنما هو يعرض في الصلاة بعد ملابستها، فلو كان هو المراد؛ لقليل: في صلاتهم ساهون، فلما قال: (عن صلاتهم)؛ دل على أن المراد به الذهاب عن الوقت»¹. ولهذا الذي قررنا؛ فقد درج أهل التصنيف في التفسير، وفي علوم القرآن، على اعتبار اللغة ركنًا من أدوات التفسير التي لا ينبغي أن يجاوزها مُتَصَدِّ لتفسير كتاب الله عز وجل.

فهذا السمرقندي رحمه الله (ت: 373هـ) من متقدمي المُفسِّرين على سبيل المثال، يُقرِّر أن: «طلب تفسيره وتأويله واجب، ولكن لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه، ما لم يتعلم ويعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل [...] فإذا لم يعلم الرجل وجوه اللغة وأحوال التنزيل، فتعلم التفسير وتكلف حفظه؛ فلا بأس بذلك، ويكون ذلك على سبيل الحكاية»²، ومحلُّ الشَّاهد منه، تنصيبه رحمه الله على لزوم معرفة المفسر للغة العربيَّة؛ سواء كانت معرفة ملكة وتمكُّن، أم معرفة حفظ ونقل.

وهذا السيوطي رحمه الله (ت: 911هـ) من مُتَأَخَّرِي المُصنِّفين في علوم القرآن؛ يذكر أن من أهل العلم «مَنْ قَالَ: يَجُوزُ تَفْسِيرُهُ لِمَنْ كَانَ جَامِعًا لِلْعُلُومِ الَّتِي يَحْتَاجُ الْمُفَسِّرُ إِلَيْهَا، وَهِيَ خَمْسَةٌ عَشَرَ عِلْمًا»³. وعندما جاء إلى تعداد هذه العلوم التي يُشترطُ على المُفسِّر الإلمامُ بها حتَّى يكون خوضه في تفسير كلام الله سائغًا؛ وجدنا نصفها تقريبًا راجعًا إلى علوم اللغة العربيَّة بمعناها العام؛ إذ سبعة من الخمسة عشر كُلُّها علومٌ لغويَّةٌ بامتياز؛ وهي على ما ذكر رحمه الله: علم اللغة (بمعنى متن اللغة)؛ إذ بها يُعرف شرح الألفاظ المفردة ومعرفة مدلولاتها بحسب الوضع، وعلم النحو؛ لأنَّ المُعْنَى يَتَغَيَّرُ وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الإِعْرَابِ فَلَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِهِ، وعلم التصريف؛ لأنَّ به تُعْرَفُ الْأَبْنِيَّةُ وَالصِّيَغُ، وعلم الاشتقاق؛ لأنَّ الإِسْمَ إِذَا كَانَ اشْتِقَاقُهُ مِنْ مَادَّتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ اخْتَلَفَ الْمُعْنَى بِاخْتِلَافِهِمَا، الْخَامِسُ وَالسَّادِسُ وَالسَّابِعُ: الْمُعَانِي وَالْبَيَانُ وَالْبَدِيعُ، لِأَنَّهُ يَعْرِفُ بِالْأَوَّلِ خَوَاصَّ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ، مِنْ جِهَةٍ إِفَادَتِهَا الْمُعْنَى وَبِالثَّانِي خَوَاصَّهَا مِنْ حَيْثُ اخْتِلَافُهَا بِحَسَبِ وَضُوحِ الدَّلَالَةِ وَخَفَائِهَا، وَبِالثَّالِثِ وَجُوهَ تَحْسِينِ الْكَلَامِ وَهَذِهِ الْعُلُومُ الثَّلَاثَةُ هِيَ عُلُومُ الْبَلَاغَةِ وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ الْمُفَسِّرِ⁴.

ولا ريب أنَّ في احتلال علوم اللغة لنصف عدَّة المُفسِّر من العلوم؛ دليلًا بالغًا على أهميَّة المكنة منها لتفسير كلام الله ربِّ العالمين.

- ثانيًا: عدمُ استقلاليَّة اللغة بمعرفة التفسير

مع تسليمنا بأنَّ التَّمكُّن من علوم اللغة العربيَّة شرطٌ من شُرُوطِ المتصدِّي للتفسير - كما سبق تقريره من كلام أهل العلم في المسألة الأولى -؛ إلَّا أنَّه ينبغي تقريرُ قضيَّةٍ أخرى هنا، لا تقلُّ أهميَّةً عن القضيَّة الأولى؛ وهي: أنَّ اللغة لا تستقلُّ بفهم القرآن؛ بل لا بد للمفسر من معرفة مصادر أخرى يعتمد عليها في تفسيره غير اللغة،

¹ الخطابي حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله وزغلول سلام (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ط3، دار المعارف، مصر، 1976م، ص32-33.

² السمرقندي نصر بن محمد، بحر العلوم، ج1، ص12.

³ السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1394هـ-1974م، ج4، ص213.

⁴ يُنظر: السيوطي، الإتيقان، ج4، ص213-214.

كالسنة النبوية، وأسباب النزول، وقصص الآي، والسياق القرآني، والقرائن التي حفت بالخطاب حال التنزيل، وغيرها من المصادر التي لا يمكن أخذها عن طريق اللغة¹.

ولذلك تجد أهل العلم بالتفسير، المتحقيقين به يُنهيون على هذا الأمر. قال القرطبي رحمه الله (ت: 671هـ): «فَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ ظَاهِرُ التَّفْسِيرِ وَبَادَرَ إِلَى اسْتِنْبَاطِ الْمَعَانِي بِمُجَرَّدِ فَهْمِ الْعَرَبِيَّةِ كَثُرَ غَلَطُهُ، وَدَخَلَ فِي زُمْرَةِ مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِالرَّأْيِ، وَالنَّقْلُ وَالسَّمَاعُ؛ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ فِي ظَاهِرِ التَّفْسِيرِ أَوَّلًا لِيَتَّقِيَ بِهِ مَوَاضِعَ الْغَلَطِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَّسِعُ الْقَهْمُ وَالِاسْتِنْبَاطُ»². والذي يتضح من كلامه رحمه الله، أنَّ الاعتماد على مُجَرَّدِ اللُّغَةِ في تفسير القرآن الكريم؛ مَظْلَنَةُ الزَّلَلِ وَالْخَطَا.

وما ذلك الزلل إلا لإهمال المصادر التفسيرية الأخرى من غير اللغة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: 728هـ) في هذا الصدد: «وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ بِمُجَرَّدِ مَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ الْمُجَرَّدُ عَنْ سَائِرِ مَا يَبَيِّنُ مَعْنَاهُ؛ فَهَذَا مَذْهَبُ الْغَلَطِ مِنَ الْغَالِطِينَ، لَا سِيَّمَا كَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِالِاحْتِمَالَاتِ اللَّغَوِيَّةِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ غَلَطًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْمَشْهُورِينَ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ مَعْرِفَةَ مَعْنَاهُ كَمَا يَقْصِدُ ذَلِكَ الْمُفَسِّرُونَ»³.

ومن أمثلة الخطأ في التفسير التي مردُّها إلى اعتماد مُجَرَّدِ اللُّغَةِ، والاستغناء عن مصادر التفسير الأخرى؛ ما انتقده أهل العلم بالتفسير على أبي عبيدة رحمه الله (ت: 209هـ) في تفسيره كلمة (الصُّور) من قول الله جل وعلا: (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) [الكهف: 99]، بأنَّها جمعُ صورة؛ بمعنى الأبدان، أي: ونُفِخَ في الأبدانِ أرواحها. قال رحمه الله: «(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) واحدها صورة، خرجت مخرج سورة المدينة والجميع سور المدينة، ومجازه مجاز المختصر المضمَر فيه؛ أي نفخ فيها أرواحها»⁴.

وهذا التفسير خطأ؛ لأنَّه أغفلَ رافداً تفسيرياً مهمًّا، رتبته مُقَدِّمَةً على اعتمادِ مُجَرَّدِ اللُّغَةِ؛ وهو السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ، وما جاءت به من دلالة المصطلح الشرعيَّة؛ إذ (الصُّور) في مُصْطَلَحِ الشَّرْعِ؛ القرن الذي يلتقمه إسرافيل عليه السلام للنفخ فيه نفختي الصعق والبعث، وقد جاء هذا مبيَّنًا عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتب السُّنَّةِ، وأقتصر منها هنا على ما جاء عند الترمذي رحمه الله (ت: 279هـ) في (السُّنَنِ): (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: جَاءَ أَعرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا الصُّورُ؟ قَالَ: قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ)⁵. وكذلك ما رواه (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ التَّقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى

¹ يُنظر: مساعد الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ط1، دار ابن الجوزي، السعودية، 1432هـ، ص633.

² القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وزميله، ط2، دار الكتب المصرية، 1384هـ-1964م، ج1، ص34.

³ ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن قاسم، دط، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، 1416هـ-1995م، ج15، ص94.

⁴ أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق فؤاد سزكين، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1381هـ، ج1، ص416.

⁵ الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق بشار معروف، دط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج4، ص198. أبواب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصور، حديث رقم 2430.

يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا¹.

قال ابن جرير رحمه الله (ت:310هـ) في هذا: «واختُلفَ في معنى (الصُّور) في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هو قرن ينفخ فيه نفختان: إحداهما لفناء من كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشر كل مَيِّتٍ. واعتلوا لقولهم ذلك بقوله جل جلاله: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) [سورة الزمر:68]، وبالخبر الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذ سئل عن الصور: "هو قرن يُنفخ فيه". وقال آخرون: (الصور) في هذا الموضع جمع (صورة)، ينفخ فيها روحها فتحيا [...] والصواب من القول في ذلك عندنا، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ"، وأنه قال: "الصور قرن ينفخ فيه"².

وهذا، في الحقيقة ما يسوقنا في سلاسة وانقيادٍ، إلى طرح الإشكال الذي تدور عليه الدراسة، وهو: كيف تم توظيف التأويل اللغوي للنص القرآني في التراث الإسلامي التفسيري؟ ويتفرع عنه: ما هي معالم استثماره إيجابياً؟ وما مظاهر استغلاله سلبياً؟

والماتمِّلُ في طرائقِ الوالِجِينَ بابَ التفسير اللغويِّ للقرآن الكريم، لا يغيبُ عن تمييزه معالمُ منهجينَ بارزينَ في التعامل مع هذه القضية: منهجٌ يستثمرُ في إمكاناتِ اللغةِ الواسعةِ انطلاقاً من النص القرآني ذاته، ومنهجٌ على العكس؛ ينطلق من مسلّماتٍ عقديّةٍ عند المفسر ليصل في الأخير للنص القرآني، ليتخذ منه حجةً ودليلاً على ذلك المقرر، والواسطة في ذلك سعة اللغة وكثرة احتمالاتها، وقد حاولنا ههنا أن نستقري ونحلل مظاهر استثمار التأويل اللغوي الإيجابي، وأن نشير إلى جوانب من توظيفه التوظيف السلبي، ولعل في هذا الكلام إجمالاً، وبسطه في المقصدين الآتيين:

المقصد الأول: أثر التأويل اللغوي في اختلاف المفسرين:

الذي أرمي إليه من خلال هذا المقصد؛ بيان الوجه المُشْرِقُ لاستثمار اللغة العربيّة في تفسير القرآن العظيم، وهو ما يُمكن أن نطلق عليه (الجانب الإيجابي) من أثر اعتماد اللغة في التفسير؛ لما يترتب عليه من تكثيرٍ للدلالات المُحتملة في الآية الواحدة، وتكثيفٍ للمعاني المُستفادَةِ منها، دون تعارضٍ بينها، مما عدّه السيوطي رحمه الله (ت:911هـ) وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم. قال رحمه الله: "وهذا الوجه من أعظم إعجازه، حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهًا، وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر. [...] قال مقاتل بن سليمان، في صدر كتابه المصنف في هذا المعنى، حديثاً مرفوعاً: (لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه؛ حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة). [...] قلت: هذا أخرجه ابن سعد وغيره، عن أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً، ولفظه: (لا

¹ الترمذي، السنن، أبواب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصور، حديث رقم 2431. ج 4، ص 198.

² الطبري ابن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد شاكر، ط 1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1420هـ-2000م، ج 11، ص 462-463.

يفقه الرجل كل الفقه). وقد فسره بعضهم، بأن المراد: أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة فيحمله عليها إذا كانت غير متضادة، ولا يقتصر به على معنى واحد¹.

والدلالات اللغوية التي يمكن أن ندلل بها على هذه القضية متعددة، وأمثلتها في القرآن الكريم ماثلة متشعبة، ولا يتسع المقام في مثل هذا المقال للاستقصاء، ولذلك؛ فإنني سأنتقي منها ثلاث دلالات هي: دلالة الاشتراك، ودلالة أصل الاشتقاق، ودلالة التضاد، وأختار لكل دلالة مثالين تطبيقيين من التفسير؛ أبين بهما عملياً؛ كيف كانت اللغة العربية عاملاً مهماً في إثراء المعاني التفسيرية، مع إمكان حمل الآية على تلك المعاني المتعددة دون تعارض أو تناقض؛ إذ من المتقرر في قواعد التفسير اللغوي؛ أنه "إذا ورد أكثر من معنى لغوي صحيح تحتمله الآية بلا تضاد؛ جاز تفسير الآية بها"². وهذا إجمالاً تفصيله كالآتي:

1- المسألة الأولى: دلالة الاشتراك

الأسماء في اللغة العربية على ثلاثة أضرب؛ قال ابن فارس رحمه الله (ت: 395هـ): «يسمى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين، وذلك أكثر الكلام [وهذا هو المتباين]؛ كرجل وفرس. وتسمى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد [وهذا هو المشترك]، نحو: عين الماء، وعين المال، وعين السحاب. ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة [وهذا هو المترادف]. نحو: السيف والمهتد والحسام»³.

والنوع الثاني من هذه الأقسام هو: المشترك اللفظي. وأكثر ما يرد الكلام عنه في كتب (أصول الفقه)⁴؛ لتعلقه باستنباط الأحكام من الأدلة، ولذلك لما عرفه السيوطي رحمه الله (ت: 911هـ) في (المزهر) قال: «وقد حده أهل الأصول بأنه: اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة»⁵. مع أن الكتاب في الأصل في علوم اللغة؛ إلا أننا نلاحظ أنه يُحيل على الأصوليين، لما ذكرنا.

وهو موجود في كلام العرب، ومن أمثلته كلمة (رؤبة)؛ فإنها مُشتركة بين عدّة معانٍ، ذكر فيها أبو علي القالي رحمه الله (ت: 356هـ) في (الأمالي) قصة طريفة، عن يونس بن حبيب رحمه الله (ت: 182هـ)⁶ قال: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاءه شبيل بن عزرة الضبعي، فقام إليه أبو عمرو فألقى له لبدًا بغلته، فجلس عليه، ثم أقبل يحدثه، فقال شبيل: يا أبا عمرو، سألت رؤيتكم [يقصد رؤبة بن العجاج] هذا عن اشتقاق اسمه، فما عرفه.

¹ السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1408هـ-1988م، ج1، ص387-388.

² الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ص591.

³ ابن فارس أبو الحسين أحمد، الصاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1418هـ-1997م، ص59.

⁴ يُنظر على سبيل المثال فقط: الجويني عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه، تحقيق صلاح عويضة، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1418هـ-1997م، ج1، ص121. و: السرخسي محمد بن أحمد، أصول السرخسي، دط، دار المعرفة، لبنان، دت، ج1، ص126.

⁵ السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة، تحقيق فؤاد منصور، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1418هـ-1998م، ج1، ص292.

⁶ وقد ذكر القصة كذلك الزبيدي في (طبقات اللغويين) في ترجمة يونس بن حبيب رحمه الله.

قال يونس: فلم أملك نفسي عند ذكره لرؤبة، فزحفتُ إليه ثم قلتُ: لعلك تظن أن معدَّ بنَ عدنانَ أفصحُ من رؤبة ومن أبيه! فأنا غلامُ رؤبة؛ فما الرؤبة، والرؤبة، والرؤبة، والرؤبة، والرؤبة؟ فلم يُجر جواباً، وقام مُغضباً. فأقبل عليّ أبو عمرو وقال: هذا رجل شريف يقصد مجالسنا، ويقضي حقوقنا، وقد أسأتَ فيما واجهته به. فقلت له: لم أملك نفسي عند ذكره رؤبة. فقال له أبو عمرو: أوُسِّلِطْتَ على تقويم الناس! ثم فسر لنا يونس فقال: الرؤبة خميرة اللبن. والروبة قطعة من الليل. وفلان لا يقوم بروبة أهله؛ أي بما أسندوا إليه من أمورهم. والروبة جمام ماء الفحل. والرؤبة -مهموزة-: القطعة تدخلها في الإناء يشعب بها الإناء¹.

فإذا يَمَمْنَا شطر القرآن الكريم؛ وجدنا ذلك حاضرًا عتيذاً، وسنجدتري - في هذه العجالة - بمثالين اثنين، نبينُ بهما أثر الاشتراك اللفظي في اختلاف أقوال المفسرين، وبيانهما كالآتي:

أ- المثال الأول: قوله عز وجل: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [النور: 26].

ومحلُّ الشاهد من الآية: كلمة (يأتلي): إذ اختلف اللغويون وأهل التفسير في تفسيرها على قولين:

- الأول: يُقْسِمُوا، ومنه الإيلاء الذي هو القسم على عدم قربان الزوجة مدةً معينةً.

- والآخر: يُقَصِّرُوا ويتركوا الفعل، من قولهم: فعلتُ جهدي ولم آل، أي لم أقصّر، ومنه قولُ معاذٍ ؓ:

(أجتهد رأيي ولا آلو)؛ «أي أطلبُ حكمَ تلك الواقعة بالقياس على المسائل التي جاء فيها نصٌّ، وأحكمُ فيها بمثل المسألة التي جاء فيها نصٌّ، لما بينَهما من المُشابهة، (وَلَا آلُو) بِمَدِّ الهمزة مُتَكَلِّمٌ مِنْ آلٍ يَأْلُو؛ أي ما أقصّرُ»³.

قال النَّحَّاسُ رحمه الله (ت: 338هـ) في (معاني القرآن): «فيه قولان: أحدهما: رواه علي بن أبي طلحة عن

ابن عباس رضي الله عنه قال: لا يقسموا ألا ينفعوا أحداً. والآخر: أن المعنى لا يقصروا؛ من قولهم: ما ألوت أن أفعل. قال هشام: ومنه قول الشاعر:

ألا رب خصم فيك ألوى رددته * نصيح على تعذاله غير مؤتلي»⁴.

وقال السمرقندي رحمه الله (ت: 373هـ) في (بحر العلوم): «(وَلَا يَأْتَلِ)، يعني: لا يحلف، وهو يفتعل من

الأليَّة وهي اليمين. [...] ويقال: معناه ولا يدع أن ينفق ويتصدق، وهو يتفعل من ألوت أي أصنع كذا. ويقال: ما ألوت جهدي، أي ما تركت طاقتي»⁵.

¹ القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم، الأمالي، تحقيق محمد عبد الجواد، ط2، دار الكتب المصرية، مصر، 1344هـ-1926م، ج1، ص48-49.

² معنى الآية إجمالاً: «ولا يحلف أهل الفضل في الدين والسَّعة في المال على ترك صلة أقربائهم الفقراء والمحتاجين والمهاجرين، ومنعهم النفقة؛ بسبب ذنب فعلوه، ولتجاوزوا عن إساءتهم، ولا يعاقبوههم. ألا تحبون أن يتجاوز الله عنكم؟ فتجاوزوا عنهم. والله غفور لعباده، رحيم بهم. وفي هذا الحثُّ على العفو والصفح، ولو قبل بالإساءة» نخبه من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ط2، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، 1430هـ-2009م، ص352.

³ القاري علي بن سلطان، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ط1، دار الفكر، لبنان، 1422هـ-2002م، ج6، ص2428.

⁴ النحاس أبو جعفر أحمد بن محمد، معاني القرآن، تحقيق محمد علي الصابوني، ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1409هـ، ج4، ص511.

⁵ السمرقندي نصر بن محمد، بحر العلوم، دون بيانات النشر، ج2، ص504.

وأبسطُ منها عبارة الرَّمَخَشَرِيِّ رحمه الله (ت: 538هـ) في (الكشاف): «وهو من ائتلى إذا حلف: افتعال من الألية. وقيل: من قولهم: ما ألوت جهدا، إذا لم تدخر منه شيئا. ويشهد للأول قراءة الحسن: ولا يتأل. والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان. أو: لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحنة لجناية اقترفوها، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح، وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم»¹. ومعنى الآية مُتَّسِقٌ على التَّقْدِيرَيْن جميعاً؛ إذ معناها على القول الأول: ولا يحلف أولو الفضل على أن لا يُحَسِّنُوا. وعلى الثاني: ولا يُقَصِّرُ أولو الفضل في أن يُحَسِّنُوا².

وواضح ممَّا سبق سياقُه من الأقوال؛ أنَّ سبب الخلاف منشؤه اشتراك الفعلين: ائْتَلَى بمعنى حلف، وأَلَى بمعنى قصَّر، في صيغة النَّهْي (لا يأتل)، مع إمكان حمل الآية عليهما دون تعارض³، وتوظيف دلالة الاشتراك في العملية التفسيرية، هو الذي أثمر لنا هذه المعاني المتكثرة للفظ القرآني الواحد.

ب- المثال الآخر: قول الله تعالى: (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) [الصافات: 93].

ومحلُّ الشاهد منه؛ كلمة (اليمين)؛ فقد ذكر أهل اللغة وأهل التفسير في معناها ثلاثة أقوال: الأول أنها اليد اليمنى، والثاني أنها القوَّة والقدرة، والثالث أنها الحلف والقسم.

- قال ابن جرير رحمه الله (ت: 310هـ): «فمال على آلهة قومه ضربا لها باليمين بفأس في يده يكسرهن. [...] وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى: فراغ عليهم ضربا بالقوَّة والقدرة، ويقول: اليمين في هذا الموضع: القوَّة؛ وبعضهم كان يتأول اليمين في هذا الموضع: الحلف، ويقول: جعل يضربهن باليمين التي حلف بها بقوله: (وَتَاللَّهِ لَا كِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ)»⁴. وأخصرُ منها عبارة السمرقندي رحمه الله (ت: 373هـ) في (بحر العلوم): «(فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) يعني: أقبل يضربهم بيمينه. ويقال: يضربهم باليمين التي حلف، وهو قوله: (وَتَاللَّهِ لَا كِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ) [الأنبياء: 57]. ويقال: بِالْيَمِينِ. يعني: يضربهم بالقوَّة، واليمين كناية عنها؛ لأن القوَّة في اليمين»⁵.

- وهي الأقوال التي تداولها أهل اللغة في الآية. قال الفراء رحمه الله (ت: 207هـ): «واليمين: القدرة والقوَّة. وكذلك قوله: (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)، أي: بالقوَّة والقدرة. وقال الشاعر [الشماخ]:

إِذَا مَا رَايَهُ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ * تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ

¹ الزمخشري محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، دار الكتاب العربي، لبنان، 1407هـ، ج3، ص222.

² يُنظر: السمين الحلبي أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق أحمد الخراط، دط، دار القلم، سوريا، دت، ج8، ص394-395.

³ نلاحظُ هنا أنَّنا نعدد الأقوال في الآية دون تعرض إلى الترجيح؛ لأنه ليس من غرضنا، وإلاَّ فَإِنَّ في هذه الآية على سبيل المثال، مرجحاتٍ للقول الأول (الحلف)، منها: سبب النزول (حلف أبي بكر ﷺ على عدم الإنفاق على مسطح)، ومنها الاستعمال القرآني (للذين يولون من نسائهم)، ومنها القراءة الشاذة (قراءة الحسن: يَتَأَلَّ).

⁴ الطبري محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل أي القرآن، تحقيق أحمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1420هـ-2000م، ج21، ص67.

⁵ السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص146.

أي بالقدرة والقوة. وقد جاء في قوله: (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) يقول: ضربهم بيمينه التي قالها: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ)¹. وقال النَّحَّاسُ رحمه الله (ت:338هـ): «يجوز أن يكون معنى (باليمين) بالقوة كما تقدم، ويجوز أن يريد اليد، وقيل: بيمينه حين قال: (وتالله لأكيدن أصنامكم)²».

وبعيداً عن التَّرجيح بين هذه الأقوال؛ فإنَّ استثمار المفسرين وأهل اللغة في دلالة الإشتراك في لفظ (اليمين)؛ حَمَلَ الآيةَ معانيَ مُتكَثِّرةً، يُمكنُ حملُها عليها جميعاً دون تعارضٍ أو إلباسٍ³.

2- المسألة الثانية: دلالة أصل الاشتقاق

من الدلالات التي استثمر فيها المفسرون واللغويون كذلك؛ (دلالة أصل الاشتقاق)، بمعنى أنَّ لمعرفة اشتقاق الكلمة وأصلها اللغوي أثراً كبيراً في اختلاف المفسرين؛ إذ قد تُفسَّرُ آيةٌ على نحو ما بناءً على كون اشتقاق لفظة فيها هو كذا، فيما يفسرها مفسر آخر تفسيراً مُغيّراً بسبب أنه حملها على اشتقاق مختلف.

وممَّا ينبغي التمهيدُ به - قبل الخوض في تفاصيل أمثلة هذه المسألة -؛ أنَّ الاشتقاق سنة من سنن العرب في كلامها، قال ابن فارس رحمه الله (ت:392هـ): «أجمع أهل اللغة - إلّا من شذ عنهم - أن للغة العرب قياساً، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأن اسم (الجنِّ) مشتق من الاجتنان. وأن (الجم والنون) تدلّان أبدأً على السَّتر. تقول العرب للدَّرع: جُنَّة، وأجنَّه الليل، وهذا جنين، أي هو في بطن أمه أو مقبور. وأن الإنس من الظهور؛ يقولون: آنست الشيء: أبصرته. وعلى هذا سائر كلام العرب؛ علم ذلك من علم، وجَهَله من جهل⁴».

- ومعناه في اصطلاحهم: «اقتطاع فرع من أصل يدور في تصاريفه حُرُوف ذلك الأصل. وقيل: هو أخذ كلمة من أخرى بتغيير ما، مع التناسب في المعنى. وقيل: هو رد كلمة إلى أخرى لتناسيهما في اللَّفْظ والمُعْنَى. وهو من أصل خواص كلام العرب، فإنَّهم أطبقوا على أن التَّفَرِيقَ بَيْنَ اللَّفْظِ الْعَرَبِيِّ والعجمي بِصَحَّةِ الْإِشْتِقَاقِ⁵».

- وأصل اللفظ هو المادَّة الأصلية التي تدور عليها تصاريف الكلمة؛ فالمادَّة بمثابة النَّقْرة من الفضة⁶، والأبنية (الصيغ) بمثابة الأوعية التي تتشكل بها تلك المادَّة الأولية. قال السيوطي رحمه الله (ت:911هـ): «وطريقُ

¹ الفراء يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق أحمد النجاشي وزملاؤه، ط1، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، دت، ج2، ص384-385.

² النحاس، معاني القرآن، ج6، ص43-44.

³ الملاحظ أنَّه يُمكنُ أن نردَّ هذه المعاني الثلاثة لُغةً إلى معنى واحدٍ؛ هو (يمينُ اليد) إذ هي الأصل، وسُمِّيت القوة والمتانة يميناً؛ لأنَّ اليمين في العموم الأغلب أقوى الجارحتين وأشدُّهما، وسَمِّيَ الْحَلْفُ يَمِينًا لِأَنَّ الْمُتَحَالِفِينَ كَأَنَّ أَحَدَهُمَا يَصْفِقُ بِيَمِينِهِ عَلَى يَمِينِ صَاحِبِهِ. يُنظر: ابن فارس أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دط، دار الفكر، لبنان، 1399هـ-1979م، ج6، ص158-159. و: الزمخشري، الكشاف، ج4، ص50.

⁴ ابن فارس، الصاحبي، ص35-36.

⁵ الكفوي أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات معجمٌ في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش وزميله، دط، مؤسسة الرسالة، لبنان، دت، ص117.

⁶ النقرة؛ قِدْرٌ من نحاس يسخن فيها الماء وغيره، والمقصود هنا قدرٌ من الفِضَّةِ السَّائِلةِ المُدَابَّةِ. يُنظر: ابن الأثير المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود الطناحي وزميله، دط، المكتبة العلمية، لبنان، 1399هـ-1979م، ج5، ص105.

معرفته؛ تقلبُ تصاريِفِ الكلمة حتى يرجع منها إلى صيغة؛ هي أصل الصيغ دلالة اطراد أو حروفا غالبا ك(ضَرْب) فإنه دال على مُطلق الضرب فقط، أما (ضَارِب ومضْرُوب ويَضْرِب واضْرِب)؛ فكلُّها أكثرُ دلالة وأكثر حروفا، و(ضَرْب) الماضي مساوٍ حروفا وأكثرُ دلالة، وكلها مشتركة في (ض ر ب)، وفي هيئة تركيبها، وهذا هو الاشتقاق الأصغر المحتجُّ به¹.

فالاشتقاق عَوْدٌ بِاللَّفْظِ إلى أصله لِيُنْبِئَ عن معناه، وبما أنه مفيدٌ في معرفة أصل الكلمة، فإنه يفيدُ كذلك في معرفة سبب الاختلاف بين بعض التَّفاسير اللُّغويَّة²، وبيان ذلك من خلال المثالين الآتيين:

أ- المثال الأول: قوله جل جلاله: (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) [الإسراء:8].

وموضِعُ الشَّاهد منها كلمة (حصيرًا)؛ إذ اختلفَ فيها أهل اللُّغة وأهل التَّفسير - تبعًا للاختلاف في أصل اشتقاقها - على قولين: الأول: (حصيرٌ) بمعنى سَجْنٍ ومَحْبَسٍ، والآخر: (حصيرٌ) بمعنى فراشٍ ومِهَادٍ. - أمَّا مَنْ قال: (حصيرٌ) بمعنى سَجْنٍ ومَحْبَسٍ؛ فقد جعلها (فعليلًا بمعنى فاعلٍ)؛ أي حاصرًا، «ويقال للسَّجْنِ الحَصِيرُ لأنَّ الناسَ يُحْصِرُونَ فيه، ويقال حَصَرَتِ الرَّجُلَ إذا حبسته، وأحصره المرض إذا منعه من السير»³. قال ابن قُتيبة رحمه الله (ت:276هـ): «(وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) أي مَحْبَسًا؛ من حَصَرْتُ الشيء: إذا حبسته، فَعِيلٌ بمعنى فاعلٍ»⁴. ومنه: الحَصَرُ في الكلام إذا احتبس عليه وأعياه، والرجل المحصور عن النساء المحبوسُ عنهنَّ، وحَصَرُ الغائط احتباسُه وإمساكُه⁵.

- وأمَّا مَنْ قال: (حصيرٌ) بمعنى فراشٍ ومِهَادٍ؛ فجعلها (فعليلًا بمعنى مفعولٍ)؛ أي محصور، ومعنى المحصور: المنسوج؛ سُبِي حَصِيرًا لِأَنَّهُ حُصِرَتْ طاقاته بعضها مَعَ بعض. والجَنِبُ يُقال لَهُ الحَصِيرُ، لِأَنَّ بعض الأضلاع مَحْصُورٌ مَعَ بعض⁶.

- وتفسيرُ الآية لا يتناقضُ على المعنيين جميعًا؛ فعلى رأي من حملها على (السجن) يكون المعنى: وجعلنا جهنم للكافرين سجنًا ومحبسًا، وهو معنى صحيحٌ. وعلى رأي مَنْ حملها على (الفراش والمهاد) يكونُ المعنى: وجعلنا جهنم للكافرين فراشًا ومهادًا، وهو معنى صحيحٌ كذلك، لذلك نجدُ تقريرهما مُجتمعين عند كثيرٍ من أهل التفسير وأهل اللغة.

¹ السيوطي، المزهري في علوم اللغة، ج1، ص275.

² يُنظر: الطيَّار، التفسير اللغوي، ص484.

³ الزجاج إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل شلبي، ط1، دار عالم الكتب، لبنان، 1408هـ-1988م، ج1، ص407.

⁴ ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد صقر، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، 1398هـ-1978م، ص251.

⁵ يُنظر: الثعلبي أحمد بن محمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق أبي محمد بن عاشور، ط1، دار إحياء التراث، لبنان، 1422هـ-2002م، ج6، ص86.

⁶ يُنظر: الأزهرى محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق محمد مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 2001م، ج4، ص137.

قال ابن جرير رحمه الله (ت:310هـ): «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: وجعلنا جهنم للكافرين سجنا يسجنون فيها. [...] وقال آخرون: معناه: وجعلنا جهنم للكافرين فراشا ومهادا [...] قال الحسن: الحَصِيرُ: فراش ومهاد، وذهب الحسن بقوله هذا إلى أن الحَصِيرَ في هذا الموضع عني به الحَصِيرُ الذي يُبْسَطُ ويفترش، وذلك أن العرب تسمي البساط الصغير حصيرا، فوجّه الحسن معنى الكلام إلى أن الله تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطا ومهادا، كما قال (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) وهو وجه حسن وتأويل صحيح، وأما الآخرون، فوجهوه إلى أنه فعيل من الحصر الذي هو الحبس»¹.

وقال الأزهري رحمه الله (ت:370هـ): «وَقَالَ اللَّيْثُ فِي قَوْلِهِ جَلْ جَلَالَهُ: (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) يُفَسِّرُ عَلَى وَجْهَيْنِ: عَلَى أَنَّهُمْ يَحْصِرُونَ فِيهَا. قَالَ: وَحَصِيرُ الْأَرْضِ: وَجْهٌهَا. قَالَ: وَالْحَصِيرُ: سَفِيفَةٌ مِنْ بَرْدِيٍّ أَوْ أَسَلٍ»².

ب- المثل الآخر: قول الله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) [الحجر:87].

ومحل التنبيه منها كلمة (المثاني)؛ وقد اختلف فيها كذلك على اعتبار أصل اشتقاقها على قولين: الأول؛ (المثاني) من الثني والتثنية، بمعنى الإعادة والتكرير. والآخر؛ (المثاني) من الثناء، بمعنى الحمد والشكر.

- أمّا مَنْ قال: (المثاني) من الثني والتثنية، بمعنى الإعادة والتكرير؛ فلأنَّ الفاتحة تعاد وتُكرَّرُ في كلّ ركعة من الفرائض والنوافل، ويثنى بها مع كلّ ما يُقرأ من القرآن. قال ابن جرير رحمه الله (ت:310هـ): «وهم أيضا [يعني أهل التفسير] مختلفون في معنى المثاني، فقال بعضهم: إنما سُمِّيَ (مثنائي) لأنهن يثنين في كلّ ركعة من الصلاة»³. وفي معنى التكرير كذلك تندرج كلمة (مثنائي) من قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُدَشِّهَاً مَثَانِي﴾ [الزمر:23]، أي تُثنى فيه الأوامر والنواهي والأنباء والقصاص، أي تُعاد وتُكرَّرُ⁴.

- وأمّا مَنْ قال: (المثاني) من الثناء، بمعنى المدح والثناء؛ واحدتها مَثْنَاءٌ، أي المحامد، والمعنى: وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعَ آيَاتٍ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي يُثْنَى بِهَا عَلَى اللَّهِ، وَآتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ⁵. «وقيل: لأنها متصدرة بالحمد، والحمد أوّل كلمة تكلم بها آدم حين عطس، وهي آخر كلام أهل الجنة من ذريته، قال الله: (وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)»⁶.

- وهذا الاختلاف في اشتقاق (المثاني) - كما ترى -، لا يحمل على شيء من التناقض في معنى الآية؛ إذ سورة الفاتحة ممّا يثنى ويكرر في الصلوات، ومعانيها ممّا يكرر ويعاد في سائر القرآن، وهي كذلك من جملة ما يُثنى بها على الله عز وجل ويُحمد به؛ فهي سورة الحمد. ولذلك نجد أهل اللغة وأهل التفسير ينصّون على المعنيين.

¹ ابن جرير، جامع البيان، ج 17، ص 390-391. ويُنظر كذلك: السمرقندي، بحر العلوم، ج 2، ص 302-303. و: الثعلبي، الكشف والبيان، ج 6، ص 86.

² الأزهري، تهذيب اللغة، ج 4، ص 137.

³ ابن جرير، جامع البيان، ج 17، ص 132.

⁴ يُنظر: الأزهري، تهذيب اللغة، ج 15، ص 100.

⁵ يُنظر: الأزهري، تهذيب اللغة، ج 15، ص 100.

⁶ الثعلبي، الكشف والبيان، ج 5، ص 350.

- قال الرَّجَّاجُ رحمه الله (ت:311هـ): «وقوله: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)؛ قيل: السبع من المثاني هي فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات، وإنما قيل لها المثاني لأنها: يُتَنَّى بها في كل ركعة من ركعات الصلاة، ويثنى بها مع مَا يُقْرَأ من القرآن. ويجوز - والله أعلم - أن يكون من (المثاني)؛ أي مما أثني به على الله، لأن فيها حَمْدَ الله، وتَوْحِيدَهُ وذكر مَلَأَتْكَه، ومُلْكُهُ يومَ الدِّين»¹.

وقال السَّمَرَقَنْدِيُّ رحمه الله (ت:373هـ): «وقال قتادة: السبع المثاني هي فاتحة الكتاب، تثنى في كل ركعة مكتوبة أو تطوع، يعني: في كل صلاة. ويقال: مِنَ الْمَثَانِي أي: مما أثني به على الله تعالى، لأن فيها حمدَ الله تعالى وتوحيده»².

3- المسألة الثالثة: دلالة التضادِّ

- التَّضَادُّ هو: أن يُوضَعَ اللَّفْظُ للمعنى وضدِّه. قال الأنباريُّ رحمه الله (ت:328هـ) في صدر كتابه (الأضداد): «هذا كتاب ذَكَرَ الحُرُوفَ التي تُوقَعُها العربُ على المعاني المتضادَّة، فيكونُ الحرفُ منها مؤدِّياً عن معنيين مختلفين»³. كما قال ابنُ فارسٍ رحمه الله (ت:392هـ): «ومن سُنَنِ العربِ في الأسماء: أن يسمُّوا المتضادَّين باسم واحد، نحو "الجَوْن" للأَسود، و"الجَوْن" للأَبْيَض. وأنكر ناسٌ هَذَا المذهب، وأن العرب تأتي باسم واحد لشيءٍ وضدِّه، وهذا لَيْسَ بشيءٍ؛ وذلك أن الَّذِينَ رَوَوْا أن العرب تُسمِّي السيفَ مَهْنَدًا، والفرَسَ طَرْفَاءَ هم الَّذِينَ رَوَوْا أن العرب تُسمِّي المتضادَّين باسمٍ واحدٍ»⁴.

- ومن أمثلته في نصوص الذِّكْرِ الحكيم؛ ما ذكر المبرِّدُ رحمه الله (ت:285هـ) في (الكامل): «وقال المفسرون في قول الله عز وجل: (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) [القلم:20]، قولين، قال قوم: كالليل المظلم، وقال قوم: كالنهار المضيء، أي بيضاء لا شيء فيها، فهو من الأضداد»⁵.
- وأما في لغة العرب عامَّةً؛ فأمثلته كثيرةٌ، تشملُ الأسماء والأفعال:

¹ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج3، ص185.

² السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص262. ويُنظَرُ في كلمة (المثاني) كذلك: الثعلبي، الكشف والبيان، ص250 وما بعدها؛ فإنَّه ذكر أقوالاً أخرى في اشتقاقها، وهي جديرةٌ بالدراسة، ولكنَّا نكتفي بالإشارة إليها هنا، اجتناباً للتَّطَوُّيل، ومنها:
- أنَّها مُشْتَقَّةٌ من كلمة (اثنين)؛ لأنَّ الله عز وجل في الحديث القدسي قال: (قسمتُ الصلاةَ [يعني الفاتحة] بيني وبين عبدي نصفين..).

- أنَّها من (الثَّني) بمعنى الرَّدِّ؛ لأنَّها تردُّ أهلَ الشَّرِّ عن شَرِّهم وتكفُّهم.

- أنَّها من (الاستثناء)؛ بمعنى أن الله عز وجل استثنى الأمم من قبلنا من إعطائها، وخصَّ هذه الأُمَّةَ بإعطائهم إيَّاهَا.

³ الأنباري أبو بكر محمد بن القاسم، الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، بيروت، 1407هـ-1987م، ص1.

⁴ ابن فارس، الصحابي في فقه اللغة، ص60.

⁵ المبرد محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار الفكر العربي، مصر، 1417هـ-1997م، ج1، ص188.

فمن المتضادِّ في الأسماء: النَّاهل: العطشان، والناهل: الذي قد شرب حتى روي. والسُدفة في لغة تميم: الظلمة، والسُدفة في لغة قيس: الضوء. والهاجد: المصلي بالليل، والهاجد: النائم. والجَلَل: الشيء الصغير، والجَلَل: العظيم. والصَّارِخ: المستغيث، والصَّارِخ: المُغيث. والظَّنُّ: يقينٌ وشك.

ومن المتضادِّ في الأفعال: شَعَبْتُ الشيء أصلحته، وشَعَبْتَهُ شَقَقْتُهُ. وَأَقْدْتُ المال: أعطيتهُ غيري، وَأَقْدْتُهُ: استَفْدْتُهُ. وأسَرَرْتُ الشيء: أخفيتهُ وأعلنته. وشِمْتُ السيف: أغمدته وسللته¹ وشريت المتاع أشريه: أخذته بثمان، أو أعطيته بثمان، فهو من الأضداد².

وأما في القرآن الكريم؛ فقد يبدو من المُستغرب - ابتداءً - الكلام عن تفسير آيةٍ بمعنيين متضادين، وهو الكتابُ المحفوظ من التناقض والاختلاف، ولكن إذا سبرنا هذه القضية بطريقة عمليّة في كتب اللغة والتفسير؛ وجدنا الأمر على العكس من ذلك، أي أن دلالة التضادِّ استثمرت في تعدد المعاني في النص الواحد، مع إمكان حمل الآية على تلك المعاني، ولا تناقض في ذلك، ولنضرب على ذلك المثالين الآتيين:

أ- المثال الأول: قوله جل جلاله: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: 22].

ومحلُّ الشَّاهد منه؛ كلمة (أندادًا)، قال الأنباري رحمه الله (ت: 328هـ): «والنِّدُّ يقع على معنيين متضادَّين؛ يقال: فلان ندَّ فلان إذا كان (ضدّه)، وفلان ندّه إذا كان (مثله)؛ وفسَّرَ النَّاسُ قول الله عز وجل: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: 22] على جهتين [...] عن ابن عبَّاس: معناه فلا تجعلوا لله أعدالا، فالأعدال جمع عدل والعدل المثل. وقال أبو العبَّاس، عن الأثرم، عن أبي عبيدة: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) أضداداً»³.

- وممن فسرّها ب(الضد) - كما ذكر الأنباري -؛ أبو عبيدة معمر بن المثنى رحمه الله (ت: 210هـ). قال في (مجاز القرآن): «(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) واحدها ندّ، معناها: أضداد، قال حسان رضي الله عنه (ت: 54هـ):
أتهجوه ولست له بند * فشركما لخيركما الفداء»⁴.

- وممن فسرّها ب(المثل) ابن جرير رحمه الله (ت: 310هـ). قال في (جامع البيان): «القول في تأويل قوله تعالى: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا). قال أبو جعفر: والأنداد جمع ندّ، والنِّدُّ: العدْلُ والمِثْل، كما قال حسان بن ثابت: أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنْدٍ * فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

يعني بقوله: "ولست له بند"، لست له بمثل ولا عدل. وكل شيء كان نظيرًا لشيء وله شبيهًا؛ فهو له ند»⁵.

- ومن الطريف استشهاد كلٍّ من أبي عبيدة وابن جرير رحمهما الله على معنَى مُتضادِّ بالبيت نفسه (بيت حسان رضي الله عنه)، مع ملاحظة أنه يُمكن تفسير الآية على الوجهين جميعًا، ولا يتأثر المعنى العامُّ للآية، بل يتَّسق ولا يختلف.

¹ يُنظر: السيوطي، المظهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 1، ص 307-308.

² يُنظر: المناوي عبد الرؤوف بن تاج العارفين، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق عبد الخالق ثروت، ط 1، دار عالم الكتب، القاهرة، 1410هـ-1990م، ص 203.

³ الأنباري، الأضداد، ص 23-24.

⁴ أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1381هـ، ج 1، ص 34.

⁵ ابن جرير، جامع البيان، ج 1، ص 368.

ب- المثال الآخر: كلمة (أَسْرُوا) من قول الله عز وجل: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ [يونس:54]¹، فَإِنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ وَأَهْلَ التَّفْسِيرِ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهَا عَلَى قَوْلَيْنِ: أَسْرُوا بِمَعْنَى: أَخَفُوا، وَأَسْرُوا بِمَعْنَى: أَعْلَنُوا. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:276هـ): «(وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ)؛ أَي أَظْهَرُهَا، يُقَالُ: أَسَرَرْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ وَأَظْهَرْتُهُ. وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ»².

- وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ أَسْرُوا بِمَعْنَى أَخَفُوا؛ الْفَرَاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:207هـ)، قَالَ: «وَقَوْلُهُ: (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ)؛ يَعْنِي الرُّؤْسَاءَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، أَسْرَوْهَا مِنْ سَفَلَتِهِمُ الَّذِينَ أَضْلَوْهُمْ، فَأَسْرَوْهَا أَي أَخَفَوْهَا»³. وَمِنْ الْمُفْسِّرِينَ السَّمَرْقَنْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:373هـ)⁴، وَالثَّعْلَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:427هـ)⁵.

- وَمِمَّنْ قَالَ إِنَّ مَعْنَاهَا أَظْهَرُوا؛ أَبُو عُبَيْدَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:210هـ) وَقَطْرِبَ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:206هـ). قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:328هـ): «وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَقُطْرِبُ: مَعْنَاهُ: وَأَظْهَرُوا النَّدَامَةَ عِنْدَ مَعَايِنَةِ الْعَذَابِ، وَاحْتِجًّا بِقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ: وَلَمَّا رَأَى الْحَجَّاجَ جَرَدَ سَيْفَهُ * أَسَرَ الْحَرُورِيُّ الَّذِي كَانَ أَضْمَرَ مَعْنَاهُ: أَظْهَرَ الْحَرُورِيُّ»⁶. وَقَدْ نَقَلَ النَّحَّاسُ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:338هـ) قَوْلًا جَيِّدًا لثَعْلَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:291هـ) وَهُوَ يَحْتِجُّ لِهَذَا الْقَوْلِ. قَالَ: «وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: إِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا؛ فَمَعْنَاهُ: بَدَتْ النَّدَامَةُ فِي أَسْرَةِ وَجُوهِهِمْ، وَوَاحِدُهَا سِرَازٌ؛ وَهِيَ الْخُطُوطُ الَّتِي فِي الْجَبِيَّةِ»⁷.

- وَقَدْ ذَكَرَ الْمُعْتَنِيَيْنِ جَمِيعًا ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:310هـ)، وَلَكِنَّهَا مُفَرَّقَةٌ فِي مَوْضِعَيْنِ؛ فَقَالَ مَرَّةً: «وَقَوْلُهُ: (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ)، يَقُولُ: وَأَخْفَتْ رُؤْسَاءَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ مِنْ وَضْعَائِهِمْ وَسَفَلَتِهِمْ النَّدَامَةَ حِينَ أَبْصَرُوا عَذَابَ اللَّهِ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ، وَأَيَقِنُوا أَنَّهُ وَقَعَ بِهِمْ»⁸. وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ) وَأَظْهَرُهَا، قَالَ: وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: (يَا لَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا)»⁹. وَسَوَاءٌ حَمَلْنَا مَعْنَى (أَسْرُوا) فِي الْآيَةِ عَلَى (أَخَفُوا، أَوْ أَظْهَرُوا وَأَعْلَنُوا)، فَإِنَّهُ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ خِلَافَ تَنْوُوعٍ كَثَرِ الْمَعْنَى وَزَادَهُ، وَلَمْ يُوقِعْهُ فِي التَّنَاقُضِ.

¹ هذه الآية وردت في موضعين في القرآن الكريم، لكنهما في السياق ذاته؛ وهو تحسُّرُ المشركين وندامتهم يوم القيامة عند معاينتهم للعذاب. وهما: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:54]، وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:33].

² ابن قتيبة، غريب القرآن، ص 357.

³ الفراء، معاني القرآن، ج 1، ص 469.

⁴ يُنظر: السمرقندي، بحر العلوم، ج 2، ص 121.

⁵ يُنظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج 5، ص 135.

⁶ الأنباري، الأضداد، ص 46.

⁷ النحاس، معاني القرآن، ج 3، ص 300.

⁸ ابن جرير، جامع البيان، ج 15، ص 103.

⁹ ابن جرير، جامع البيان، ج 18، ص 291.

وجُمْلَةُ القول في ختام هذا المقصد، بعد سياق تلك الأمثلة التفصيلية، لاستثمار المفسرين وأهل اللغة في إمكانات اللغة العربية، لبيان النصوص القرآنية، أنَّ هذه الجهود التفسيرية للقرآن الكريم بلغة العرب تمثل بحق أثراً إيجابياً لاعتماد اللغة في التفسير، وذلك يتَّضح من جانبين اثنين: جانب المُنتَلَق، وجانب النتيجة. أمَّا جانب المُنتَلَق؛ فأقصد به أنَّ مُفسِّر النصِّ القرآنيَّ انطلق منه هو ذاته، ومن الإمكانات اللغوية المُختزنة فيه؛ سواء كانت متعلقة بالاشتقاق أو بالاشتراك أو بالتضادِّ، أو بغيرها من الدلالات والأساليب التي لم نذكرها، واتخذ منها أساساً للمحاولة إلى الوصول إلى المعنى المُراد. وأمَّا جانبُ النتيجة؛ فأقصد به أنَّ اعتماد هذه الدلالات اللغوية المختلفة في العملية التفسيرية للنص القرآني، رغم اختلافها إلى حدِّ التضادِّ (كما رأينا في دلالة التَّضادِّ)؛ فإنها لم تؤدِّ بمبدول النص القرآني إلى الاختلاف والتناقض، بل يُمكن أن تتَّسق كلُّ تلك المعاني مع المعنى العامِّ للآية، دون إشكالٍ أو إلباسٍ.

المقصد الثَّاني: استغلال التَّأويل اللُّغويِّ للانحراف بالتفسير:

في هذا الجزء من المقال؛ أتناولُ بالتَّوصيف ما يُمكن أن أُسميه الجانب السلبيِّ من استخدام اللغة في التفسير، وقد تعمَّدتُ التعبير بـ(استغلال التَّأويل اللُّغويِّ)؛ لأنَّ المُفسِّر في هذا المقام، لا ينطلق من النص ذاته - كما رأينا في أمثلة المقصد الأول -؛ بل ينطلق من مُسلَّماتٍ قَبْلِيَّةٍ عنده، ويُحاولُ أن يحمل عليها النص القرآنيَّ، وإن كان فيها تعسُّفٌ لا تقبله الآية، مُستغلاً في ذلك سعة اللغة العربية، واحتمالاتها المتعددة.

1- المسألة الأولى: استغلال دلالات الألفاظ

لا أقصدُ بدلالات الألفاظ ههنا ما هو متعارفٌ عليه في الدرس الأصوليِّ بهذا المصطلح؛ وهو الثَّنَائِيَّات المتقابلة من قبيل العموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والحقيقة والمجاز وغيرها؛ وإنما المقصود (معاني المُفردات) في التفسير، وأوجه استغلال دلالات الألفاظ للانحراف في التفسير عدَّةٌ، لِكَيْ سَأُكتفي في هذا المقام بضربٍ واحدٍ منها وهو: اختيارُ المدلول اللُّغويِّ المناسب للمُعْتَقَد؛ وذلك إذا كان لللفظ في لغة العرب أكثر من استعمالٍ؛ كاليد، تطلقُ على: اليدِ الجارحةِ، والنعمةِ، والقدرةِ، والنُّصرةِ، فيختارونَ منها ما يوافقُ مذهبهم المقرَّرَ عندهم، ولا ينظرونَ إلى صحَّةِ إطلاقه في هذا السِّياق من عدمه، بل يتمخَّلونَ له أيَّما تمخَّل، مكتفين في ذلك التفسير بهذا الورود عن العرب¹. ومن أمثلة هذه القضية ما يأتي:

أ- المثال الأول: كلمة (خليلاً) من قوله جل جلاله: (وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) [النساء: 125].

فإنَّ المعروف في تفسير (خليلاً)؛ أنَّها من (الخلَّة) بضمِّ الخاء؛ بمعنى الحُبِّ والولاية، أو كمال المحبَّة التي لا خلل فيها. قال ابن جرير رحمه الله (ت: 310هـ): «يعني بذلك جل ثناؤه: واتخذ الله إبراهيم وليًّا. فإن قال قائل: وما معنى "الخلَّة" التي أعطيها إبراهيم؟ قيل: ذلك من إبراهيم عليه السلام: العداوةُ في الله والبغض فيه، والولاية في الله والحب فيه، على ما يعرف من معاني "الخلَّة". وأما من الله لإبراهيم، فنُصرتَه على من حاوله بسوءٍ، كالذي فعل به إذ أَرادَه نمرود بما أَرادَه به من الإحراق بالنار فأنقذه منها، أو على حجته عليه إذ حاجَّه = وكما فعل بملك مصر إذ أَرادَه عن أهله وتمكينه مما أحب، وتصييره إمامًا لمن بعده من عبادَه، وقُدوةً لمن خلفه في طاعته وعبادته. فذلك معنى مُخَالَّتِه إياه.

¹ يُنظر: مساعد الطيار، التفسير اللُّغوي، ص 526.

- وقد قيل: سماه الله "خليلاً"، من أجل أنه أصاب أهل ناحيته جذباً، فارتحل إلى خليل له من أهل الموصل، وقال بعضهم: من أهل مصر، في امتيار طعام لأهله من قبله، فلم يصب عنده حاجته. فلما قرب من أهله مرَّ بمفازة ذات رمل، فقال: لو ملأت غرائري من هذا الرمل لثلا أغمم أهلي برجوعي إليهم بغير ميرة، وليظنوا أنني قد أتيتهم بما يحبون! ففعل ذلك، فتحول ما في غرائره من الرمل دقيقاً، فلما صار إلى منزله نام. وقام أهله، ففتحو الغرائر، فوجدوا دقيقاً، فعجنوا منه وخبزوا. فاستيقظ، فسألهم عن الدقيق الذي منه خبزوا، فقالوا: من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك! فعلم، فقال: نعم! هو من خليلي الله! قالوا: فسماه الله بذلك "خليلاً"¹.

- ولكن قوماً من المؤولة أنكروا هذا المعنى، وذهبوا به إلى معنى (الخلة) بفتح الخاء بمعنى الفقر والحاجة، «وإنما ذهبوا لذلك؛ لأنه تقرّر عندهم في عقولهم التي هي الحكم على ألفاظ الشرع، أن الباري سبحانه منزّه عن هذه الصفات التي تدلّ على الحدوث، بزعمهم، فلما كان هذا ثابتاً عندهم، تأوّلوا هذا اللفظ على ذلك المعنى فزاراً من إثبات ما أثبتته الله لنفسه، وأكرم به نبيّه إبراهيم عليه السلام»². قال ابن قتيبة رحمه الله (ت: 276هـ): «وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) أَي فَقِيرًا إِلَى رَحْمَتِهِ. وَجَعَلُوهُ مِنْ "الْخَلَّةِ" يَفْتَحُ الْخَاءُ، اسْتِيحَاشًا مِنْ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى خَلِيلًا لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ وَاحْتِجُوا بِقَوْلِ زُهَيْرٍ:

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ * يَقُولُ لَا غَائِبَ مَالِي وَلَا حَرِمَ

أَيِ إِنْ أَتَاهُ فَقِيرٌ. فَأَيُّهُ فَضِيلَةٌ فِي هَذَا الْقَوْلِ، لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا، فَقَرَاءً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ وَهَلْ إِبْرَاهِيمُ فِي "خَلِيلِ اللَّهِ" إِلَّا كَمَا قِيلَ "مُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ"، و"عِيسَى رُوحُ اللَّهِ"؟»³.

ب- المثال الآخر: كلمة (كَلَمَ) من قول الله عز وجل: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء: 164].

- فَإِنَّ تَفْسِيرَهَا عَلَى مَا ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: 310هـ): «وَخَاطَبَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ مُوسَى خَطَابًا»⁴. فهي مُشْتَقَّةٌ مِنَ (الكلام)، وذكر في ذلك آثاراً تدلّ عليه، من جملتها ما يؤثر عن كعبٍ رضي الله عنه قال: إن الله جل ثناؤه لما كلم موسى، كلمه بالألسنة كلها قبل كلامه (يعني: كلام موسى)، فجعل يقول: يا رب، لا أفهم! حتى كَلَّمَهُ بِلِسَانِهِ آخَرَ الْأَلْسِنَةِ، فقال: يا ربّ هكذا كلامك؟ قال: لا، ولو سمعت كلامي (أي: على وجهه) لم تك شيئاً! وزاد أبو بكر الصغاني في هذا الحديث: أن موسى قال: يا ربّ، هل في خلقك شيء يشبه كلامك؟ قال: لا، وأقرب خلقي شيئاً بكلامي، أشدّ ما تسمع الناس من الصواعق⁵.

- إِلَّا أَنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ لَمْ تَرْضِهِ بَعْضُ الْفِرَقِ الَّتِي تُنَكِّرُ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاسْتَعْظَمَتْ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِالْكَلامِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ عَنْدهُمْ يَقْتَضِي أَنَّهُ حَدَثٌ (مخلوق)، لِأَنَّ الْكَلامَ مِنْ صِفَاتِ الْحَوَادِثِ، فَحَرَّفُوا تَفْسِيرَ الْكَلِمَةِ إِلَى (الكَلَمِ) بِمَعْنَى الْجُرْحِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى مَا زَعَمُوا: جَرَّحَ اللَّهُ مُوسَى بِمُخَالَبِ الْحِكْمَةِ. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ

¹ ابن جرير، جامع البيان، ج9، ص251-252.

² الطيار، التفسير اللغوي، 527.

³ ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تأويل مختلف الحديث، ط2، المكتب الإسلامي، لبنان، 1419هـ-1999م، ص121-122.

⁴ ابن جرير، جامع البيان، ج3، ص403.

⁵ يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج3، ص404.

(ت:751هـ): «فمن تأويل التحريف والإلحاد تأويل الجهمية قوله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) أي جرح قلبه بالحكم والمعارف تجريحا. ومن تحريف اللفظ تحريف إعراب قوله: (وَكَلَّمَ اللَّهُ)، في الرفع إلى النصب، وقال: وكلم الله، أي موسى كلم الله ولم يكلمه الله»¹.

- ومن طريف ما يُذكر ههنا، أن هذا التَّأويل لصفة الكلام لم يرتضه حتى الزمخشري، وهو من رؤوس الاعتزال، ويُنكر صفة الكلام لله عز وجل فقال: «ومن بدع التفاسير أنه من (الكلم)، وأن معناه وجَّح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن»².

2- المسألة الثانية: استغلال دلالات الصيغ

لبنية الكلمة أهمية في تحديد معناها؛ فعن طريق البنية وصيغها المختلفة تبرز المعاني وتُحدَّد، وقد عرف بعضهم هذه الدلالة بأنها: "الدلالة التي يُعرب عنها مبنى الكلمة"، أو: المعاني المستفادة من الصيغة الصرفية. وسماها بعض الباحثين: "الوظائف الصوتية للكلمة" وعرفها بأنها: "هي المعاني المستفادة من الأوزان والصيغ المجردة"³. وقد كانت (دلالات الصيغ) قديماً تُعرف بـ(معاني الأبنية)، وقد أفرد لها ابن قتيبة رحمه الله (ت:276هـ) باباً من كتابه (أدب الكاتب)، سمَّاهُ (كتاب الأبنية)؛ أي الصيغ الصَّرفيَّة ومعانيها، ومما جاء فيه: «باب (تَفَاعَلْتُ ومَوَاضِعُها):

تأتي تَفَاعَلْتُ من اثنين بمعنى افتعلت، تقول: "تَضَارَبْنَا" بمعنى اضطررنا، و"تَقَاتَلْنَا" بمعنى اقتتلنا، و"تَجَاوَرْنَا" بمعنى اجتورنا، و"تَلَاقَيْنَا" بمعنى التقينا، و"تَخَاصَمْنَا" و"اختصمنا"، و"تَرَامَيْنَا" وارتميانا. وتأتي تَفَاعَلْتُ من واحدٍ كما جاءت فاعلْتُ من واحد، تقول: "تَقَاضَيْتُهُ" و"تَرَاءَيْتُ" له و"تَمَارَيْتُ في ذلك"، و"تَعَاطَيْتُ منه أمراً قبيحاً". وتأتي تَفَاعَلْتُ بمعنى إظهارك ما لست عليه؛ نحو: "تَغَافَلْتُ" و"تَجَاهَلْتُ" و"تَعَامَيْتُ" و"تَعَاشَيْتُ" و"تَعَارَجْتُ"⁴.

وقد استغلَّ بعضُ المُفسِّرين من أصحاب المقررات العقديَّة المُسبقة هذه القضية في التفسير ليُمَرِّر بها مُعتقده الباطل، ومن أمثلة هذه المسألة:

أ- المثال الأول: كلمة (أَغْفَلَ) من قول الله عز وجل: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) [الكهف:28].

فإنَّ معناها: شغلنا قلبه عن ذكرنا، بالكفر واتِّباع الهوى. قال ابن جرير رحمه الله (ت:310هـ): «وقوله: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: ولا تطع يا محمد من شغلنا قلبه من الكفار الذين سألوك طرد الرهط الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيَّ عنك، عن ذكرنا، بالكفر

¹ ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعتلة، تحقيق علي الدخيل الله، ط1، دار العاصمة، السعودية، 1408هـ، ج1، ص217.

² الزمخشري، الكشاف، ج1، ص591.

³ يُنظر: سيد مصطفى أبو طالب، مقال (الدلالة الصرفية)، شبكة الألوكة، تاريخ الإضافة 2016/12/20م- 1438/03/20هـ.

⁴ ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، دط، مؤسسة الرسالة، لبنان، دت، ص465.

وغلبة الشقاء عليه، واتبع هواه، وترك اتباع أمر الله ونهيه، وأثر هوى نفسه على طاعة ربه، وهم فيما ذكر: عُيْنَةُ بن حصن، والأقرع بن حابس وذووهم¹.

- لكنَّ قومًا من المعتزلة - على أصلهم في إنكار نسبة هذه الأفعال لله عز وجل -، جعلوا من (أغفل) بمعنى: وجده غافلاً، وصادفَه غافلاً. قال ابن جني رحمه الله (ت:392هـ): «ولن يخلو "أغفلنا" هنا من أن يكون من باب أفعلت الشيء؛ أي صادفته ووافقته كذلك؛ كقوله:

وأهَيَّجَ الخِلَصَاءَ من ذاتِ البُرْقِ

أي صادفها هائجة النبات، [...] وقول الآخر:

فأصممت عمرا وأعميته * عن الجود والمجد يوم الفخار

أي صادفته أعمى. وحكى الكسائي: دخلت بلدة فأعمرتها؛ أي وجدتها عامرة، ودخلت بلدة فأخربتها؛ أي وجدتها خراباً².

ومن طريف ما يُساقُ في هذا المقام؛ ما يحكى: أَنَّ القاضي عبد الجبار الهمداني المعتزلي دخل على صاحب ابن عباد؛ وكان معتزلياً أيضاً، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، فقال عبد الجبار على الفور: سبحان من تنزه عن الفحشاء! فقال أبو إسحاق: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء! فقال عبد الجبار: وفهم أنه قد عرف مراده: أريد ربنا أن يعصى؟ فقال أبو إسحاق: أيعصى ربنا قهراً؟ فقال له عبد الجبار: أرايت إن منعني الهدى، وقضى عليّ بالردى، أحسن إلي أم أساء؟ فقال له أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك؛ فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له؛ فإنه يختص برحمته من يشاء. فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله ليس عن هذا جواب³.

ب- المثال الآخر: كلمة (يُخْرِجُهُم) من قول الله تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)[البقرة:257]. فَإِنَّ معناها: يهديهم للإيمان به. قال ابن جرير رحمه الله (ت:310هـ): «يعني تعالى ذكره بقوله: (الله ولي الذين آمنوا)، نصيرهم وظهيرهم، يتولاهم بعونه وتوقيه، (يخرجهم من الظلمات) يعني بذلك: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. وإنما عني بـ(الظلمات) في هذا الموضع الكفر. وإنما جعل (الظلمات) للكفر مثلاً؛ لأن الظلمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء وإثباتها، وكذلك الكفر حاجبٌ أَبْصَارَ القلوبِ عن إدراك حقائق الإيمان والعلم بصحته وصحة أسبابه. فأخبر تعالى ذكره عباده أنه وليُّ المؤمنين، ومُبَصِّرُهُمْ حقيقة الإيمان وسبله وشرائعه وحججه، وهادِيَهُمْ فَمَوْفَّقُهُمْ لأدلتِهِ المزيَلة عنهم الشكوك، بكشفه عنهم دواعي الكفر⁴. - ولكنَّ المعتزلة - على أصلهم في أفعال العباد، ونفي أن يكون الله خالق الإيمان والكفر -، انحرَفُوا بالكلمة إلى معنى: حكمَ بأنَّهم خارجون من الظُّلُمَاتِ إلى النُّور؛ فراراً من إثباتِ خلقِ الله عز وجل للإيمان في قلب العبد.

¹ ابن جرير، جامع البيان، ج18، ص8.

² ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دت، ج3، ص256-257.

³ يُنظر: ابن عثيمين محمد بن صالح، القول المفيد على كتاب التوحيد، ط2، دار ابن الجوزي، السعودية، 1424هـ، ج2، ص402.

⁴ ابن جرير، جامع البيان، ج5، ص424.

قال الأخفش رحمه الله (ت:215هـ): «وأما قوله: (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)؛ فيقول: "يَحْكُمُ بِأَنَّهُمْ كَذَلِكَ" كما تقول: "قَدْ أَخْرَجَكَ اللَّهُ مِنْ ذَا الْأَمْرِ" ولم تكن فيه قط. وتقول: "أَخْرَجَنِي فَلَانُ مِنَ الْكِتْبَةِ" ولم تكن فيها قط. أي: لَمْ يَجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِهَا وَلَا فِيهَا»¹.

وهذا خُرُوجُ بِالصِّيغَةِ عَنْ مَعْنَاهَا الظَّاهِرِ، وتَأْوِيلُ لَهَا بِمَا يُوَافِقُ الْمُعْتَقَدَ السَّابِقَ، ولذلك فقد أَنْكَرَ الرَّجَّاجُ رحمه الله (ت:311هـ) أَنْ يَكُونَ أَهْلُ اللُّغَةِ عَرَفُوا هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي أَنْشَأَهُ الْأَخْفَشُ فَقَالَ: «وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ). أَيِ يَخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهَالَةِ إِلَى نُورِ الْهُدَى؛ لِأَنَّ أَمْرَ الضَّلَالَةِ مُظْلِمٌ غَيْرُ بَيِّنٍ، وَأَمْرُ الْهُدَى وَاضِحٌ كَبَيِّنِ النُّورِ.

وقد قال قوم (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) يَحْكُمُ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ خَارِجُونَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وهذا ليس قولَ أَهْلِ التفسيرِ، وَلَا قولَ أَكْثَرِ أَهْلِ اللُّغَةِ، إِنَّمَا قَالَهُ الْأَخْفَشُ وَحْدَهُ»².

3- المسألة الثالثة: استغلال أساليب الخطاب

المقصود بأساليب الخطاب: مسالك العرب في التعبير عن أغراضهم، وطرائقهم في الإعراب عن دواخلهم، والإفصاح عن مكنوناتهم؛ من التقديم والتأخير، والحذف والإثبات، والحقيقة والمجاز، والكناية والتعريض، ومخالفة ظاهر اللفظ لمعناه، وغيرها من أفانين العرب في قولها وسننها في كلامها³.

وقد كتب فيها كثيرٌ من أهل العلم بالقرآن واللغة العربية، على نحو ما نجدُ عند ابنِ قُتَيْبَةَ رحمه الله (ت:276هـ) في (تأويل مُشَكِّلِ الْقُرْآنِ)، أو ابنِ فَارِسٍ رحمه الله (ت:395هـ) في (الصاحي)، أو الثَّعَالِبِيِّ رحمه الله (ت:429هـ) في (فقه اللغة)، ولا يخفى أَنَّ هَذِهِ الطَّرَائِقَ فِي التَّعْبِيرِ، كَانَتْ مَطْيَّةً لَطَائِفَةً مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، لِمُتَمَرِّصِ الْمُعْتَقَدِ بِخَلْفِيَّةٍ سَابِقَةٍ؛ لَا عَنْ تَحَرٍّ وَاجْتِهَادٍ، وَمِنْ أَكْثَرِ الْأَسَالِيبِ الَّتِي اسْتَعْمَلَتْ فِي ذَلِكَ (أَسْلُوبُ الْحَذْفِ)، وَلِذَلِكَ فَإِنِّي سَأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى مِثَالَيْنِ مِنْهُ، تَفْصِيلُهُمَا كَالآتِي:

أ- المِثَالُ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) [الأحزاب:72].

- ومعنى الآية عند أهل العلم بالتفسير: إن الله عرض طاعته وفرائضه على السماوات والأرض والجبال على أنها إن أحسنت أُثِيبَتْ وَجُوزِيَتْ، وَإِنْ ضَيَّعَتْ عُوقِبَتْ، فَأَبَتْ حَمْلَهَا شَفَقًا مِنْهَا أَنْ لَا تَقُومَ بِالْوَاجِبِ عَلَيْهَا، وَحَمَلَهَا

¹ الأخفش أبو الحسن المجاشعي، معاني القرآن، تحقيق هدى قراة، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1411هـ-1990م، ج1، ص196.

² الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج1، ص339.

³ لابن قُتَيْبَةَ رحمه الله في صدر كتابه (تأويل مشكل القرآن) كلامٌ نفيسٌ عن الأساليب العربية ومقامات القول، من جُمْلَتِهِ: «فَالْخَطِيبُ مِنَ الْعَرَبِ، إِذَا ارْتَجَلَ كَلَامًا فِي نِكَاحٍ، أَوْ حِمَالَةٍ، أَوْ تَحْضِيضٍ، أَوْ صِلَحٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - لَمْ يَأْتِ بِهِ مِنْ وَادٍ وَاحِدٍ، بَلْ يَفْتَنُ؛ فَيَخْتَصِرُ تَارَةً إِرَادَةَ التَّخْفِيفِ، وَيَطِيلُ تَارَةً إِرَادَةَ الْإِفْهَامِ، وَيَكْرُرُ تَارَةً إِرَادَةَ التَّوَكِيدِ، وَيَخْفِي بَعْضَ مَعَانِيهِ حَتَّى يَغْمُضَ عَلَى أَكْثَرِ السَّامِعِينَ، وَيَكْشِفُ بَعْضَهَا حَتَّى يَفْهَمَهُ بَعْضُ الْأَعْجَمِيِّينَ، وَيَشِيرُ إِلَى الشَّيْءِ وَيَكْنِي عَنِ الشَّيْءِ. وَتَكُونُ عَنَانِيَّتُهُ بِالْكَلَامِ عَلَى حَسَبِ الْحَالِ، وَقَدَرِ الْحِفْلِ، وَكَثْرَةِ الْحَشْدِ، وَجَلَالَةِ الْمَقَامِ. ثُمَّ لَا يَأْتِي بِالْكَلَامِ كُلِّهِ، مَهْدَبًا كُلَّ التَّهْدِيدِ، وَمَصْقَى كُلِّ التَّصْفِيَةِ، بَلْ تَجِدُهُ يَمْزِجُ وَيَشُوبُ، لِيَدُلَّ بِالنَّاقِصِ عَلَى الْوَافِرِ، وَبِالْغَيْثِ عَلَى السَّمِينِ. وَلَوْ جَعَلَهُ كُلَّهُ نَجْرًا وَاحِدًا، لَبَخَسَهُ بِهَاءِهِ، وَسَلَبَهُ مَاءَهُ».

ص17-18.

آدم (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا) لنفسه (جَهُولًا) بالذي فيه الحِظُّ له. عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)، إِنَّ أَدْوَمًا أَثَابَهُمْ وَإِنْ ضَيَعُوهَا عَذِبَهُمْ، فَكَرَهُوا ذَلِكَ، وَأَشْفَقُوا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَلَكِنْ تَعْظِيمًا لِدِينِ اللَّهِ أَنْ لَا يَقُومُوا بِهَا، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ فَقَبِلَهَا بِمَا فِيهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) غَرًّا بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ¹.

وقد نقل ابن الأنباري رحمه الله (ت: 328هـ)، «عن ابن جُرَيْجٍ، قَالَ: حَدَّثْتُ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ، قَالَ: إِنِّي فَارِضٌ فَرِيضَةٌ، وَخَالِقٌ جَنَّةٌ وَنَارًا، وَثَوَابًا لِمَنْ أَطَاعَنِي، وَعِقَابًا لِمَنْ عَصَانِي، فَقَالَتِ السَّمَوَاتُ: خَلَقْتَنِي وَسَخَّرْتَ فِيَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ وَالرِّيَّاحَ وَالسَّحَابَ وَالْغَيْوُثَ، فَأَنَا مَسْخَرَةٌ عَلَى مَا خَلَقْتَنِي، لَا أَتَحَمَّلُ فَرِيضَةً، وَلَا أَبْغِي ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا. وَقَالَتِ الْأَرْضُ: خَلَقْتَنِي وَسَخَّرْتَ فِيَّ الْأَنْهَارَ، وَأَخْرَجْتَ مِنِّي الثَّمَارَ، وَخَلَقْتَنِي لِمَا شِئْتَ، فَأَنَا لَا أَتَحَمَّلُ فَرِيضَةً، وَلَا أَبْغِي ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا. وَقَالَتِ الْجِبَالُ: خَلَقْتَنِي رَوَاسِيًّا لِلْأَرْضِ، فَأَنَا عَلَى مَا خَلَقْتَنِي، لَا أَتَحَمَّلُ فَرِيضَةً، وَلَا أَبْغِي ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا. فَلَمَّا خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَضَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَتَحَمَّلَهُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا) ظَلَمَهُ نَفْسَهُ فِي خَطِيئَتِهِ، (جَهُولًا) بِعِقَابِ مَا تَحَمَّلَهُ»².

وَمُجْمَلُ مَا فِي هَذِهِ الْأَثَارِ عَنِ السَّلَفِ: أَنَّ عَرَضَ الْأَمَانَةِ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَقَعَ حَقِيقَةً، وَهُوَ مَا يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْكَلَامِ.

- وَلَكِنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُؤَلِّةِ مَمَّنْ لَمْ تَحْتَمِلْ عُقُولُهُمْ إِبْثَاتَ التَّمْيِيزِ لِغَيْرِ الْعُقُلَاءِ؛ كَالسُّجُودِ وَالتَّسْبِيحِ وَالْخُشُوعِ وَالْخَشْيَةِ وَالْعَرَضِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا تَزَخَّرُ بِهِ نصوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَلَجَأُوا إِلَى الْإِنْحِرَافِ بِهَا وَتَأْوِيلِهَا؛ فَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا نَصٌّ مِنَ التَّأْوِيلِ بِشَكْلِ مِنَ الْأَشْكَالِ، وَالَّذِي يُهْمُنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ، اسْتِعْمَالُهُمْ ل(أَسْلُوبِ الْحَذَفِ) فِي عَمَلِيَّةِ التَّأْوِيلِ، وَمِمَّا قَالُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ:

«مُحَالٌّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ جَلْ جَلَالِهِ عَرَضَ الْأَمَانَةِ عَلَى السَّمَوَاتِ فِي ذَاتِهَا، لِأَنَّهَا مِمَّا لَا يُكَلَّفُ عَمَلًا، وَلَا يَعْقِلُ ثَوَابًا، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ وَأَهْلِ الْجِبَالِ، فَأَبَوْا أَنْ يَحْمِلُوهَا، فَحُذِفَ (الْأَهْلُ) وَقَامَ الَّذِي بَعْدَهُ مَقَامَهُ، وَجَعَلَ (أَبْيَنُ) لِلْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ؛ لِقِيَامِهَا مَقَامَ (الْأَهْلِ)، كَمَا قَالُوا: يَا خَيْلَ اللَّهِ أَرْكَبِي، وَأَبْشِرِي بِالْجَنَّةِ، أَرَادُوا: يَا فَرَسَانَ خَيْلَ اللَّهِ أَرْكَبُوا، فَأَقِيمِ الْخَيْلَ مَقَامَ الْفُرْسَانِ، وَصُرِفَ الرُّكُوبُ إِلَيْهَا»³.

وقد ذكر هذا التَّأْوِيلَ الرَّازِيُّ رحمه الله (ت: 606هـ) وَأَنَّهُ أَحَدُ الْمَحْتَمَلَاتِ فِي الْآيَةِ فَقَالَ: «الْمُرَادُ أَهْلُوهَا، فَفِيهِ إِضْمَارٌ تَقْدِيرُهُ: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»⁴.

بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ اجْتَرَأَ عَلَى إِنْكَارِ هَذَا (الْعَرَضِ) صِرَاحَةً. قَالَ الْأَنْبَارِيُّ رحمه الله (ت: 328هـ): «وَقَالَ آخَرُونَ: مَا عَرَضَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَطُّ، وَإِنَّمَا هَذَا مِنَ الْمَجَازِ عَلَى قَوْلِ الْعَرَبِ: عَرَضْتُ الْجِمْلَ

¹ يُنْظَرُ: ابْنُ جُرَيْجٍ، جَامِعُ الْبَيَانِ، ج 20، ص 335-336.

² ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ، الْأَضْدَادُ، ص 390.

³ أَوْرَدَهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي الْأَضْدَادِ قَوْلًا لِبَعْضِ النَّاسِ، 391-392.

⁴ الرَّازِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو، مِفْتَاحُ الْغَيْبِ، ط 3، دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، لُبْنَانُ، 1420هـ، ج 25، ص 187.

على البعير فأبى أن يَحْمِلَهُ، أي وجدت البعير لا يصلح للحمل ولا للعَرْض، فكذلك السموات والأرض والجبال، لا تصلح للأمانة ولا لعَرْضِها عليها»¹.

- ونتيجة هذا التفسير، تحكيم المقررات العقلية السابقة على نصوص الشرع، وحملها عليها حملاً مُتَعَسِّفًا باستخدام سعة اللغة وإمكانها، وتعدد أساليبها وأفانيتها.

ب- المثل الآخر: قوله تعالى: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر: 22].

إذ من أشهر النصوص التي سلط عليها أهل التأويل (أسلوب الحذف) هذه الآية.

- ومعناها عند أهل الراسخين: أنها صفة المجيء لله عز وجل يوم القيامة لفصل القضاء. قال ابن جرير رحمه الله (ت: 310هـ): «وقوله: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) يقول تعالى ذكره: وإذا جاء ربك يا محمد وأملاكه صفوفًا صَفًّا بعد صفٍّ»². وذكر هنالك أحاديث مرفوعة وأثارًا موقوفة في تفصيل مجيء الله جل وعلا يوم القيامة³. وهذا المعنى موجود في غير هذه الآية، من مثل قوله تعالى: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ) [البقرة: 210]. وقوله عز وجل: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) [الأنعام: 158]⁴.

- إلا أن أهل التأويل على مختلف مذاهبهم، ممن يُنكرُ صفة الإتيان والمجيء لله عز وجل ذهبوا في صرف الآية عن ظاهرها كل مذهب، ومن جملة ما لجأوا إليه في ذلك (أسلوب الحذف).

فذهب بعضهم إلى تقدير المحذوف: وجاءت آيات ربك، وبَدَتْ مظاهر قدرته وسلطانه. قال الرمخشري رحمه الله (ت: 538هـ): «فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة؟ قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه»⁵.

وقد جمع الرازي غفر الله له (ت: 606هـ) جملة ما ورد من تأويلات للآية في قوله: «قوله تعالى: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)، وأعلم أنه ثبت بالدليل العقلي أن الحركة على الله تعالى محال، لأن كل ما كان كذلك كان جسمًا، والجسم يستحيل أن يكون أزليًا، فلا بُدَّ فيه من التأويل، وهو أن هذا من باب حذف المضاف وإقامة

¹ ابن الأنباري، الأضداد، ص 392.

² ابن جرير، جامع البيان، ج 24، ص 417.

³ منها على سبيل المثال، أثر الضحاك بن مزاحم، قال: إذا كان يوم القيامة، أمر الله السماء الدنيا بأهلها، ونزل من فيها من الملائكة، وأحاطوا بالأرض ومن عليها، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، فصَفُّوا صَفًّا دون صفٍّ، ثم ينزل الملك الأعلى على مجنبيه اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل الأرض ندُّوا، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه فذلك قول الله: (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ)، وذلك قوله: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) وقوله: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) وذلك قول الله: (وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا). ج 24، ص 418.

⁴ يُنظر: ابن عثيمين محمد بن صالح، شرح العقيدة الواسطية، عناية سعد الصميل، ط 6، دار ابن الجوزي، السعودية، 1421هـ، ج 1، ص 274 وما بعدها.

⁵ الرمخشري، الكشف، ج 4، ص 751.

المُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامُهُ، ثُمَّ ذَلِكَ الْمُضَافُ مَا هُوَ؟ فِيهِ وُجُوهٌ أَحَدُهَا: وَجَاءَ (أَمُرُ رَبِّكَ) بِالْمَحَاسَبَةِ وَالْمَجَازَةِ، وَثَانِيهَا: وَجَاءَ (قَهْرُ رَبِّكَ) كَمَا يُقَالُ: جَاءَتْنا بَنُو أُمِّيَّةٍ أَيْ قَهَرُهُمْ، وَثَالِثُهَا: وَجَاءَ (جَلَائِلُ آيَاتِ رَبِّكَ)، لِأَنَّ هَذَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَظْهَرُ الْعِظَائِمُ وَجَلَائِلُ الْآيَاتِ، فَجُعِلَ مَجِيئُهَا مَجِيئًا لَهُ تَفْخِيمًا لِشَأْنِ تِلْكَ الْآيَاتِ، وَرَابِعُهَا: وَجَاءَ (ظُهُورُ رَبِّكَ)، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ تَصِيرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ضَرُورِيَّةً؛ فَصَارَ ذَلِكَ كَظُهُورِهِ وَتَجَلِّيهِ لِلْخَلْقِ، فَقِيلَ: وَجَاءَ رَبُّكَ أَيْ زَالَتْ الشُّبْهَةُ وَارْتَفَعَتِ الشُّكُوكُ، خَامِسُهَا: أَنَّ هَذَا تَمَثِيلٌ لظُهُورِ آيَاتِ اللَّهِ وَتَبْيِينِ آثَارِ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، مُثِّلَتْ حَالُهُ فِي ذَلِكَ بِحَالِ الْمَلِكِ إِذَا حَضَرَ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّهُ يَظْهَرُ بِمُجَرَّدِ حُضُورِهِ مِنْ آثَارِ الْهَيْبَةِ وَالسِّيَاسَةِ مَا لَا يَظْهَرُ بِحُضُورِ عَسَاكِرِهِ كُلِّهَا وَسَادِسُهَا: أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمُرْتَبِي، وَلَعَلَّ مَلَكًا هُوَ أَعْظَمُ الْمَلَائِكَةِ هُوَ مُرْتَبِي لِلنَّبِيِّ ﷺ جَاءَ، فَكَانَ هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَجَاءَ رَبُّكَ)».

- كُلُّ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ الْمُتَكَلِّفَةِ الْمُسْتَثْنَلَةِ مِنْ تَقْدِيرٍ لِلْمَحْذُوفِ، فَرَارًا مِنْ إِثْبَاتِ صِفَةِ الْمَجِيءِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ، وَأَثْبَتَهَا لَهُ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفَسَّرَ بِهَا السَّلَفُ الصَّالِحُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ. قَالَ ابْنُ قَتِيبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: 276هـ) فِي بَيَانِ مُجْمَلِ اعْتِقَادِ السَّلَفِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: «وَعَدْلُ الْقَوْلِ فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ؛ أَنْ نَوْثِقَ بِمَا صَحَّ مِنْهَا بِنَقْلِ الثَّقَاتِ لَهَا، فَنَوْثِقَ بِالرُّؤْيَةِ وَالتَّجَلِّيِ، وَإِنِ هُوَ يَعْجَبُ، وَيَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، وَبِالنَّفْسِ وَالْيَدَيْنِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ نَقُولَ فِي ذَلِكَ بِكَيْفِيَّةٍ أَوْ بَحْدٍ، أَوْ أَنْ نَقِيسَ عَلَى مَا جَاءَ مَا لَمْ يَأْتِ، فَنَرْجُو أَنْ نَكُونَ فِي ذَلِكَ الْقَوْلِ وَالْعَقْدِ عَلَى سَبِيلِ النِّجَاحِ غَدًّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى»¹.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: 751هـ) فِي إِنْكَارِ تَقْدِيرِ مَحْذُوفَاتٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا دَلِيلٌ: «وَهُوَ حَالُ أَكْثَرِ الْكَلَامِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ سَلَطَ عَلَيْهِ الْإِضْمَارُ، فَسَدَ التَّخَاطُبُ، وَبَطَلَتِ الْعُقُودُ وَالْأَقَارِيرُ، وَالطَّلَاقُ وَالْعَتَاقُ، وَالْوَصَايَا وَالْوُقُوفُ، وَالشَّهَادَاتُ، وَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ مُرَادَ أَحَدٍ؛ إِذْ يُمْكِنُهُ أَنْ يَضْمَرَ كَلِمَةٌ تَغْيِيرُ الْمَعْنَى وَلَا يَدُلُّ الْمُخَاطَبُ عَلَيْهَا.

وَبَابُ الْإِضْمَارِ لَا ضَابِطَ لَهُ؛ فَكُلٌّ مِنْ أَرَادَ إِبْطَالَ كَلَامٍ مُتَكَلِّمٍ؛ ادَّعَى فِيهِ إِضْمَارًا يَخْرُجُهُ عَنْ ظَاهِرِهِ، فَيَدَّعِي مَلْحَدًا الْإِضْمَارَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء: 164]، أَيْ: وَكَلَّمَ مَلِكُ اللَّهِ مُوسَى، وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه: 5]، إِضْمَارَ مَلِكِ الرَّحْمَنِ، كَمَا ادَّعَى بَعْضُهُمُ الْإِضْمَارَ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَنْزِلُ رَبُّنَا) أَيْ: مَلَكُ رَبُّنَا، وَفِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: (وَجَاءَ رَبُّكَ) [الفجر: 22]، أَيْ: مَلَكُ رَبِّكَ. وَلَوْ عَلِمَ هَذَا الْقَائِلُ أَنَّهُ قَدْ نَهَجَ الطَّرِيقَ وَفَتَحَ الْبَابَ لِكُلِّ مَلْحَدٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَزَنْدِيقٍ وَصَاحِبٍ بِدْعَةٍ يَدَّعِي فِيهَا يَحْتَجُّ بِهِ لِمَذْهَبِهِ عَلَيْهِ إِضْمَارَ كَلِمَةٍ أَوْ كَلِمَتَيْنِ نَظِيرَ مَا ادَّعَاهُ لِاخْتَارَ أَنْ يَخْرُسَ لِسَانَهُ، وَلَا يَفْتَحَ هَذَا الْبَابَ عَلَى نصوصِ الْوَحْيِ، فَإِنَّهُ مَدْخُلٌ لِكُلِّ مَلْحَدٍ وَمُبْتَدِعٍ وَمَبْطُلٍ لِحُجَجِ اللَّهِ مِنْ كِتَابِهِ، وَمَنْ رَأَى مَا أَضْمَرَهُ الْمُتَأَوَّلُونَ مِنَ الرِّافِضَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدْرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِّلَةِ مِمَّا حَرَفُوا بِهِ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَأَزَالُوهُ عَنْ مَا قَصَدَ لَهُ مِنَ الْبَيَانِ وَالِدَلَالَةِ، عَلِمَ أَنَّ لَهُمْ أَوْفَرَ نَصِيبٍ مِنْ مِثَابَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِالتَّحْرِيفِ وَاللِّيِّ وَالْكَتْمَانِ، أَفْتَرَى يَعْجِزُ الْجَهْمِيُّ عَنْ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا) فَيَضْمَرُ: مَلِكُ رَبِّكُمْ وَنَعِيمُهُ وَثَوَابُهُ، وَنَحْوُ

¹ ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشيبة، تحقيق عمر بن محمود، ط1، دار الراجعية، السعودية، 1412هـ-1991م، ص53.

ذلك، ويعجز الملحد عن الإضمار في قوله عز وجل: (وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) [الحج:7] أي: أرواح من في القبور. وإذا انفتح سد يأجوج ومأجوج؛ أقبلوا من كل حذب ينسلون»¹. والمتأمل في هذه الأنساق الثلاثة من الدلالات - التي سُقنا في هذا المقصد أمثلةً عمليّةً عليها -، يُدرِكُ عن كثبٍ مدى استغلال طائفة من أهل التأويل؛ ذوي الخلفيات العقديّة المبيّنة لسعة اللغة العربيّة، وإمكاناتها المتعدّدة لخدمة ذلك المُعتقد.

خاتمة:

- لا ريب أنّ مَنْ طَوَّفَ مع هذا القدر من الشواهد التطبيقية على أثر اعتماد اللغة في التأويل؛ ستبتدى له ملامح نتائج، يُمكنُ سياقُ بعضها على النحو الآتي:
- 1- علوم اللغة العربيّة من أهمّ علوم الآلة التي تلزمُ المُفسّرَ، ولا يُمكنُ لمن لم يُحِطْ بها أن يُقدم على تفسير كتاب الله عز وجل.
 - 2- على ما للغة العربيّة من أهميّة في تفسير القرآن العظيم؛ فإنّ اعتمادها بمفردها، وإهمال غيرها من موارد التفسير؛ كالتفسير النبوي، وأثار الصحابة، يُعدُّ من موارد الزلل والخطأ.
 - 3- انطلاق المُفسّر من نصّ القرآن الكريم ذاته؛ أثمر لنا اختلافاً في الأقوال في التفسير تبعاً للدلالات اللغويّة المختلفة، إلّا أن هذا الاختلاف يُعدُّ خلاف تنوع لا تضادّ، زاد من ثراء معاني الآي وتنوع مدلولاتها.
 - 4- الدلالات اللغويّة التي أثّرت المعاني القرآنيّة متعددة، وقد ذكرنا منها في هذا البحث ثلاثة هي: دلالة الاشتراك، ودلالة أصل الاشتقاق، ودلالة التّضادّ.
 - 5- انطلاق المُفسر من المقررات العقدية السابقة، أخرج لنا نمطاً من التفسير؛ تُستغلُّ فيه سعة اللغة وإمكاناتها لتمرير المُعتقد، وإن خالف الحقّ وما عليه أهل العلم الراسخون.
 - 6- استغلال اللغة في التفسير لخدمة معتقد المُفسر أخذ عدة صور، ذكرنا منها في البحث ثلاثة هي: استغلال دلالات الألفاظ، واستغلال دلالات الصيغ، واستغلال أساليب الخطاب.
 - 7- لما كان الانطلاق من النص القرآنيّ ذاته لإدراك المعنى هو الطريق العلمي الصحيح، على طريقة أهل العلم الراسخين (استدل ثم اعتقد)؛ أثمر لنا هذا السبيل اختلافا محموداً؛ كثر دلالات النص القرآني وأثرى معانيه بواسطة استثمار الدلالات اللغوية المختلفة. ولما كان عكس القضية بالانطلاق من المقررات العقدية ثم تلمس الأدلة لها من النص القرآني، على طريقة أهل الزيغ (اعتقد ثم استدل)، أثمرت لنا هذه الطريق اختلافا مذموماً، شتت شمل النص القرآنيّ وحَرَفَ دلالاته.
 - 8- السبيلُ الأمثلُ للوصول إلى تأويلٍ لغويٍّ بعيدٍ عن التكلّف والشطط؛ هو الانضباطُ بقواعد التفسير اللُّغويّ، وعدم الخروج عنها، مع العناية بغيرها من قواعد التفسير.
- هذا وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

¹ ابن القيم، الصواعق المرسلة، ج2، ص711-712.

• القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

- 1- ابن الأثير المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود الطنحلي وزميله، دط، المكتبة العلمية، لبنان، 1399هـ-1979م. 1- أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق فؤاد سزكين، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1381هـ.
- 2- الأخفش أبو الحسن المجاشعي، معاني القرآن، تحقيق هدى قراعة، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1411هـ-1990م.
- 3- الأزهرى محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق محمد مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربى، لبنان، 2001م.
- 4- الأنباري أبو بكر محمد بن القاسم، الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، بيروت، 1407هـ-1987م.
- 5- البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق عبد العلي حامد، ط1، دار الرشد، السعودية، 1423هـ-2003م.
- 6- الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق بشار معروف، دط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.
- 7- ابن تيمية أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن قاسم، دط، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، 1416هـ-1995م.
- 8- الثعلبي أحمد بن محمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق أبي محمد بن عاشور، ط1، دار إحياء التراث، لبنان، 1422هـ-2002م.
- 9- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دت.
- 10- الجويني عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه، تحقيق صلاح عويضة، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1418هـ-1997م.
- 11- الخطابي حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله وزغلول سلام (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ط3، دار المعارف، مصر، 1976م.
- 12- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، تحقيق خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1408هـ-1988م.
- 13- الرازي محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ط3، دار إحياء التراث العربى، لبنان، 1420هـ.
- 14- الزجاج إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل شلبي، ط1، دار عالم الكتب، لبنان، 1408هـ-1988م.
- 15- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1376هـ-1957م.
- 16- الزمخشري محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، دار الكتاب العربى، لبنان، 1407هـ.

- 17- السرخسي محمد بن أحمد، أصول السرخسي، دط، دار المعرفة، لبنان، دت.
- 18- السمرقندي نصر بن محمد، بحر العلوم، دون بيانات النشر.
- 19- السمين الحلبي أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق أحمد الخراط، دط، دار القلم، سوريا، دت.
- 20- سيد مصطفى أبو طالب، مقال (الدلالة الصرفية)، شبكة الألوكة، تاريخ الإضافة 2016/12/20م-1438/03/20هـ.
- 21- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1394هـ-1974م.
- 22- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة، تحقيق فؤاد منصور، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1418هـ-1998م.
- 23- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1408هـ-1988م.
- 24- الطبري محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1420هـ-2000م.
- 25- الطيار مساعد بن سليمان، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ط1، دار ابن الجوزي، السعودية، 1432هـ.
- 26- أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق فؤاد سزكين، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1381هـ.
- 27- ابن عثيمين محمد بن صالح، القول المفيد على كتاب التوحيد، ط2، دار ابن الجوزي، السعودية، 1424هـ.
- 28- ابن عثيمين محمد بن صالح، شرح العقيدة الواسطية، عناية سعد الصميل، ط6، دار ابن الجوزي، السعودية، 1421هـ.
- 29- ابن فارس أبو الحسين أحمد، الصحاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1418هـ-1997م.
- 30- ابن فارس أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دط، دار الفكر، لبنان، 1399هـ-1979م.
- 31- الفراء يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق أحمد النجاتي وزملاؤه، ط1، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، دت.
- 32- القاري علي بن سلطان، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ط1، دار الفكر، لبنان، 1422هـ-2002م.
- 33- القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم، الأمالي، تحقيق محمد عبد الجواد، ط2، دار الكتب المصرية، مصر، 1344هـ-1926م.
- 34- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، دط، مؤسسة الرسالة، لبنان، دت.

- 35- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، تحقيق عمر بن محمود، ط1، دار الراية، السعودية، 1412هـ-1991م.
- 36- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تأويل مختلف الحديث، ط2، المكتب الإسلامي، لبنان، 1419هـ-1999م.
- 37- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تحقيق محمد شمس الدين، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، دت.
- 38- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد صقر، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، 1398هـ-1978م.
- 39- القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وزميله، ط2، دار الكتب المصرية، 1384هـ-1964م.
- 40- ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعتلة، تحقيق علي الدخيل الله، ط1، دار العاصمة، السعودية، 1408.
- 41- الكفوي أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش وزميله، دط، مؤسسة الرسالة، لبنان، دت.
- 42- المبرد محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار الفكر العربي، مصر، 1417هـ-1997م.
- 43- المناوي عبد الرؤوف بن تاج العارفين، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق عبد الخالق ثروت، ط1، دار عالم الكتب، القاهرة، 1410هـ-1990م.
- 44- النحاس أبو جعفر أحمد بن محمد، معاني القرآن، تحقيق محمد علي الصابوني، ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1409هـ.
- 45- نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ط2، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، 1430هـ-2009م.